الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر – بسكرة

الماستر

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

ثنائية الخطيئة واللعنة في رواية "نزيف الحجر" لـ"إبراهيم الكوني" –دراسة نقدية أسطورية–

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية

تخصص أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:

مريم شرقي

تحت إشراف الأستاذ:

د/ محمد الأمين بحري

السنة الجامعية 2016/2015

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد الله تعالى وتبارك رب السماوات والأرض رب العرش العظيم

أتقدم بشكري الجزيل للدكتور محمد الأمين بحري على إشرافه قبل كل شيء وعلى توجيهاته القيمة

كما أتقدم بالشكر لعائلتي وأصدقائي والى كافة أساتذة قسم الأدب العربي.

مقدمة

لاشك أن حديثنا عن أعمال إبراهيم الكوني يوجب علينا الوقوف برهة والتأمل في أبعادها !!

أو ليس جديرًا بنا أن نوفي الأديب حقه؟ ونؤمن بالإبداع والفن؟ أو ليست كل أعماله تعد وسامًا في الرواية العربية كونها ترجمة إلى أكثر من لغة، ونالت أكثر من جائزة فحقيقة أن كل روايته تعتبر أعمالا قيمة نشهد له بالصنيع.

كثيرة هي الأحيان التي نجد فيها أنفسنا منغمسين في غمار هذا العالم الروائي الواسع، لما يحمله في ثناياه من أشكال إبداعية وعوالم ثقافية متنوعة، إذ يتخذ الكوني من تلك العوالم التخيلية بساطه السحري، الذي يطوف به أرجاء الصحراء كطائر محلق أعلى من المألوف في سماء الصحراء وفي فيضها الأسطوري.

نلاحظ بأن الدراسات تتعدد بتعدد دارسيها، لاسيما إذا كنا سنتحدث عن موضوع جدير بالاهتمام مثل موضوع "ثنائية الخطيئة واللعنة".

إذ ليس الأمر الهين أن تغفل عن مثل هاته المواضيع، لأن هاته الدراسات هي التي حررت تلك الأقلام التي تنهل من ينبوع الآداب وتخط لنفسها مجرى غزيرا نحو العالمية.

سنحاول من خلال هذا الطرح، أن نزيح تلك الرهبة البادية على عالم الأساطير ونغوص في زواياه العجائبية لنجد أنفسنا، نختار لبحثنا هذا رواية تنطق من وجودها الأساطير المحاكية لعالمنا، ولواقعنا إلا وهي رواية " **نزيف الحجر**" للكاتب الليبي إبراهيم الكوني، باعتبار أن هاته الرواية قد استولت على كيان الروائي، وجعلته يطوف في زوايا الصحراء، باحثا عن سر الخلود، نابشا في المقابر اللحود واللعنات، ليتقصى آثار تلك النكسة، ويدرك أخيرا أن الحنث بالوعد والمساس بالناموس يعد أكبر الخطايا.

هنالك لا جدران تعلق عليها إعلانات للحرية هناك لا أبواب للمطلق، هنا هي "الصحراء"، صحراء الروائي من حيث انطلق ومن حيث سننطلق لنطرح جملة من التساؤلات علها تروي ضمأ إلحاحنا وغرورنا، لمعرفة أهم الإشكالات التي تحاول هذه الدراسة الإجابة منها:

- ما مفهوم الخطيئة واللعنة؟ وهل يعد النذر من بين مضامين الميثاق الأسطوري؟ وما المقصود بالقصاص؟ وما مغزى تطرقنا إلى الموروث بأنواعه المختلفة؟

للإجابة عن هاته التساؤلات، اقترحنا خطة بحث رأيناها تفي بالغرض في هذه الدراسة والتي سنعتمد فيها ما يلي:

- مدخل بعنوان إشكالية المقدس والمدنس "تحت ضوء الخطيئة واللعنة"، وسنتناول فيه مفهوم المقدس والمدنس، ومفهوم الخطيئة والخطأ التراجيدي.
- أما الفصل الأول فسنعرض فيه بنية الخطيئة، ومفهوم النذر، وبنية اللعنة والقصاص لنصل إلى المصير النهائي.
- أما بالنسبة للفصل الثاني، سنحاول أن نبرز فيه الموروث التاريخي والأسطوري والأدبي والصوفي وبعدها نستقف عند التناص الأسطوري.

وللحديث عن قضية المنهج المعتمد، فقد اعتمدنا على آليات المنهج النقدي الأسطوري وذلك من خلال تلك الملامح الأسطورية البادية في الرواية والتي تتضمن أهم البوادر الأسطورية من تأصيل في ثنايا الكون والوجود، وتعمق في علاقة الإنسان بالمقدسات، ووقوعه في الخطايا ليقيد بأغلال اللعنات، فهذا ما يتلاءم مع الدراسة وما تتضمنه رواية "نزيف الحجر" من رواسب ثقافية لمجتمعات وقبائل طوارقية.

ولإنعاش هذا الموضوع وإثرائه سنعتمد على جملة من المراجع عّل أهمها:

لميرسيا إلياد " **المقدس والمدنس** "، مؤلف جماعي " **المتخيل الصحراوي** "، سعيد الغانمي "**ملحمة الحدود القصوى** "، محمد كعوان " **التأويل وخطاب الرمز في خطاب الشعر الصوفي العربي المعاصر**".

أما الحديث عن الصعوبات التي واجهتنا في هذا العمل نذكر:

أن هذا البحث يخطو على مسار الدراسات الأنثروبولوجية والعقائدية، التي يتخللها بعض الغموض لاسيما وإن كانت مكسوة بلغة صوفية تختص بأهل الصحراء.

إن سرد إبراهيم الكوني يحاول أن يتفرد عن المنجزات الروية العربية من خلال صياغة ظواهر غير مسبوقة، إضافة إلى أن الدراسات حول أعمالة من الناحية الأسطورية وحول النقد الأسطوري عند العرب نادرة جدا.

وفي الأخير نحمد الله على هاته النعمة ونشكره على عونه سبحانه وتعالى.

كما لا يمكن أن نختم بحثنا هذا دون أن نتقدم أسمى عبارات الشكر والعرفان إلى أستاذنا "**محمد الأمين بحري**" على ما قدمه لنا من نصائح وتوجيهات خلال فترة تحضير المذكرة وقبل انجازها.

مدخل

إشكالية المقدس والمدنس تحت ضوء الخطيئة واللعنة

1- المفهوم اللغوي:

1-1- مفهوم المقدس:

قبل أن نخوض الحديث في الأصل اللغوي للفظة "قدس" لابد لنا أن نقف أمام وجودها في القرآن الحكيم، إذ وردت هاته اللفظة في أكثر من صيغة. فيقول الله عز جلاله: "**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**"[1]، ويقول تعإلى: "**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**"[2]، ويقول تعالى كذلك: "**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**"[3].

كما جاء في لسان العرب لابن منظور:"قَدَس يفتح القاف والدال، فموضع بالتام من فتوح شرحبيل بن حسنة، والقدس بضم الدال وسكونها اسم ومصدر، ومنه قيل للجنة: حظيرة القدس، والتقديس التطهير والتبريك، وتقدس أي تطهر.

وقال الزجاج: معنى نقدس لك أي نطهر لك، وكذلك نفعل من أطاعك تقدسه أي تطهره ومن هذا قيل: للسطل القدس لأنه يتقدس منه أي يتطهر.

وقال هذا بيت المقدس أي بيت مطهر أي مكان يتطهر به الذنوب، قال بن الكلبي: القدوس الطاهر والطاهر منه الله عز وجل والقدس بركة، والأرض المقدسة المطهرة"[4].

من خلال المفهوم اللغوي لفظة "قدس" نستنتج أنها تعني الطهارة، البركة كما جاء في الوسيط قدس الرجل: زار بيت المقدس، ولله تقديسا: طهر نفسه له وصلى له عظمه وكبره... تقدس: تطهير والطهارة والقداس: الشرف العظيم والقداسة: الطهر والبركة وروح القدس جبريل عليه السلام"[5].

---

[1] **سورة البقرة**، الآية رقم 29.

[2] **سورة الحشر**، الآية رقم 13.

[3] **سورة طه**، الآية رقم 11.

[4] ابن منظور الإفريقي، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، **لسان العرب**، مادة (ق.د.س)، دار المعارف القاهرة، المجلد الخامس (د.ت)، ص 3550.

[5] إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلامية، اسطنبول، ج1، ط1، ص 719.

كما نلاحظ أن لفظة "قدس" تعني الشرف والعظمة وهذا ما جاء في معجم الوسيط.

1-2- مفهوم المدنس:

جاء في لسان العرب: "دنس" في الثياب: لطخ الوسخ، ونحوه في الأخلاق والجمع أدناس، وقد دنس، يدنس، دنسا، فهو دنس: توسخ وتدنس: اتسخ، ودنسه غيره تدنيسا، وفي حديث الإيمان: كأنه ثيابه لم يمسها دنس. الدنس: الوسخ، ورجل دنس المروءة الاسم الدنس ودنس الرجل عرضه انفعل ما يشينه"[1].

كما جاء كذلك في المعجم الوسيط: "دنس ثوبه دنسا ودناسة: توسخ، تلطخ. ويقال: دنس عرضه وخلقه فهو دنس جمع أدناس"[2].

نستنتج من خلال التعاريف اللغوية أن لفظة "دنس" تعني الوسخ وكل ما يشوه سمعة المرء ويلطخ سمعته وعرضه.

كما نلاحظ أن هناك تعارض واضح في التعريفين السابقين بين المقدس والمدنس وهذا ما سنحاول أن نوضحه.

2- المفهوم الاصطلاحي:

2-1- المقدس:

كلما كان المصطلح ذا ماهية معمقة، كلما كانت حقوله المعرفية متنوعة ومتشعبة لذلك وجدنا صعوبة في تحديد ماهية "المقدس" لكثرة الاختلافات الدلالية لهاته الماهية فحاولنا أن نسلط الضوء على أهم الحقول التي تحددت مفهوم المقدس نذكر منها:

---

[1] ابن منظور الإفريقي، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، **لسان العرب**، مادة (ق.د.س)، دار المعارف القاهرة، المجلد الخامس (د.ت)، ص 14302.

[2] إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ص 298.

2-1-1- المقدس والدين:

يرى أصحاب هذا الاتجاه، أن المقدس يعد شكلاً من الأشكال الدينية، فهو "الأوامر المقدسة المتجذرة في العقل الباطني للإنسان" [1]. فالمقدس ينتمي إلى كبسولة الدين لما يحمله في طياته من عظمة ومهابة، ويعد المقدس كذلك: الطاهر المنزه من العيوب والنقائص الذي يجب احترامه وإجلاله لماله من قيمة دينية"[2].

نلاحظ أن كل ما يحمل معنى الط هارة والإجلال يعد مقدسا دينيا "لأن المقدس هو الحقيقي بامتياز"[3].

كما يرى أن "وظيفة الدين تتحدد في جوهرها بحركة مزدوجة قوامها اكتساب الطهارة وإزالة الرجاسة"[4]، والطهارة هنا متعلقة بالمقدس الطاهر.

2-1-2- المقدس الأنثربولوجيا:

لقد سعى الأنثربولوجيون على إعطاء نظرة أنثربولوجيا للمقدس لأنهم يرون أن في تقديس ما هو خارق وما فوق الطبيعة من آلهة يعد ذا ت سمة أسطورية، لذلك نرى أن ميرسيا إلياد يعتبر المقدس ينطوي تحت ما يسمى الأسطورة فيقول: هي رواية تاريخ مقدس يعبر عن أحداث وقعت في الزمان الأول قامت به الآلهة وكائنات الخارقة العظيمة"[5].

فالمقدس إذا على حسب رأي الأنثربولوجيين يرتبط بالآلهة وكائنات ما فوق الطبيعة.

كما نلاحظ أن الإنسان البدائي قد فرض على نفسه وضع نواميس تنص بعدم المساس بالمقدس أو محاولة تدنيسه، فعمل على وضع حد بينه وبين عظمة وقداسة ذلك

---

[1] بوعلي ياسين، **الثالوث المحرم**، دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي، دار الطليعة بيروت، لبنان، ط2، 1978، ص 34.

[2] محمود يعقوبي، **معجم الفلسفة وأهم المصطلحات وأشهر الأعلام**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط 1، 2008، ص 131.

[3] المرجع نفسه، ص 132.

[4] المرجع نفسه، ص نفسها.

[5] ميرسياإلياد، **الأساطير والأحلام والأسرار**، تر. حبيب كاسوحة، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ص 8.

المقدس، فقرن المقدس بالأسطورة لذلك يرى كلودلفي شتراوس أن الأسطورة ت نطلق من تلك الطقوس المقدسة فيقول: "الطقوس التاريخية أو التذكارية التي تستعيد الأجواء المقدسة التي سادت الزمن الأسطوري"[1].

نستنتج من خلال هذا أن تلك الطقوس التي كانت تؤدي والعادات التي كانت تمارس، انحدر ظهورها من ذلك الزمن الأسطوري، كما نجد أيضا أن القدسي هو: "الطاهر المحض فيكون مقدسا خالصا إلهيا أو ما يحتوي نفسيا إلهيا وما يكون ملازما إلهيا"[2]، فالمقدس إذا هو كل ما ارتبط بالآلهة.

لذلك تعد الآلهة والأسطورة نموذجا مثاليا للمقدس: تحكي الأسطورة تاريخا مقدسا، أي حدثا بدائيا حصل في بداية الزمن"[3].

لأن كائنات تلك الأسطورة ليست مجرد كائنا بشريا بل هي آلهة، فيقول ميرسيا إلياد: "إنها آلهة أو أبطال محضرة، ولهذا السبب فإن إشاراتهم تشكل إسرارا لا يستطيع الإنسان معرفتها إذا لم تكن قد كشفت له، فهي تاريخ ما سبق حصوله في الزمن الأول وقصة ما فعلته الآلهة أو الكائنات الإلهية في بدء الزمن"[4].

فكما نلاحظه أن المقدس هو أحد ميادين الأنثروبولوجيا.

2-1-3- المقدس والتصوف:

---

[1] كلوديفي شتراوس، **الفكر الثرى**، تر. نظير جاهل، مجد المؤسسة الجامعية الدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط3، 2007، ص 282.

[2] يوسف شلحت، **المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده** ، تر خليل أحمد خليل، دار الطليعة بيروت، لبنان، ط 1، 1992، ص 37.

[3] ميرسيا إلياد، **المقدس والمدنس**، ص 73.

[4] المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

لو أنعمنا النظر في مصطلح "المقدس" لوجدناه غائبا في الساحة الصوفية، بسبب ظهور مصطلح "القدسي" لأنه أكثر شيوعا وتداولا فالقدسي: "هو كل ما يعبر عن ينبع عن يتحلى من خلاله أو بواسطته، عالم التنزيه والطهارة والبركة والارتفاع، والسمو والخصوبة، وما يوجد تمام الوجود ذلك إذا دخل في شخص أو شيء طهره وبارك عليه ليعلو به"[1].

وهو يعد ذلك الطاهر والنزيه، والسامي فبواسطته ترتقي الذات لتخرج من عالم الدنس إلى عالم القداسة.

فالقدسي كذلك هو: الظاهر المحض، فيكون مقدسا خالصا إلهيا أو ما يحتوي نفسا إلهيا وما يكون ملازما إلهيا"[2].

كما يعتبر القدسي كذلك "المنزه من كل نقص وعيب".

نستنتج من خلال هذا أن المقدس أو القدسي ذا النزعة الصوفية يرتبط ارتباطا وثيقا بالآلهة يعيش الإنسان تجربة التعالي إلى رحاب الذات الإلهية[3].

2-3- المدنس:

يعد مصطلح المدنس من المصطلحات الشائعة في الوسط الديني على وجه عام وفي الوسط الأسطوري على وجه خاص، لذلك يرى "ميرسيا إلياد" أنه مجرد: "نشاط عابث وخداع في آخر المطاف غير حقيقي"[4].

فيصفه كذلك "بالدنيوي (المدنس)" [1]، كما أنه يشير إلى عالمنا الطبيعي "بالدنيوي غير المقدس"[2].

---

[1] المليودي شغموم، **المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي**، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ط2، 2011، ص 27.

[2] أحمد زكي كنون، **المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر من النكبة إلى النكبة** ، أفريقيا، المغرب، 2006، ص 22.

[3] محمد الحوة وآخرون، **الإنسان والمقدس**، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، صفاقيس، ط 1، 1994، ص 5.

[4] ميرسيا إلياد،**المقدس والمدنس**، ص 74.

فالمدنس يحمل سمة الدنيوي على حسب رأي ميرسيا إلياد إذ أن كل شيء بالنسبة إليه في عالمنا هذا غير مقدس ومدنس.

من خلال هذا نلاحظ أن المساس بالمقدس وتدنيسه يقودنا إلى الوقوع في الخطيئة، لذلك: "إننا نعتقد أن كل سلالة آدم قد تفشت فيها هذه العدوى، والتي هي الخطيئة الأصل ونزعة الشر الموروثة".

ومن خلال تعرفنا عن المقدس والمدنس لابد لنا أن نعرف ما هي الخطيئة وما هو مفهومها؟

3-3- الخطيئة:

كان لا بد لنا أن نعطي نظرة عامة للمقدس والمدنس قبل الخوض في الحديث عن الخطيئة وبالتالي نجد أنفسنا ملاحقين من طرف لعنة قد تكون أبدية لذلك نرى أن: "مفهوم الخطيئة الأصلية بوصفه، متصورا جدليا... إن الشر ليس شيئا يكون ولا كائن له ولا طبيعة لأنه منا أنه الوجه الذي نستطيع أن نسميه الشر الحالي"[3].

لذا نلاحظ أن الخطيئة ناجمة منا لأننا نحن من نحكم على أنفسنا باللعنة ما دام لن يكون هنالك تكفير عن هاته الخطيئة.

كذلك: "فإن الخطيئة التي يعترف الإنسان بها هي أقل من فعل الإساءة وعمل شريء، مما هي حالة كوننا في العالم، ومن بؤس الوجود، فالخطيئة هي قدر مستبطن"[4].

كما أن الخطيئة التي تنجم عن الإنسان الذي عبث مع المقدس خطيئة كبرى: "قد ذهب القديس أغسطيس إلى النهاية القصوى لمفهوم الخطيئة الأصلية، وذلك بإعطائه

---

[1] ميرسيا إلياد،**المقدس والمدنس**، المرجع نفسه، ص 14.

[2] ميرسيا إلياد، **الأساطير والأحلام والأسرار**، ص 191.

[3] بول ريكور، **صراع التأويلات**، دراسات هيرمنوطقية، تر. د. منذر عياشي، درا أويا للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، ط1، كانون الثاني، يناير 2000، ص 320.

[4] المرجع نفسه، ص 321.

أكثر فأكثر معنى عقدة ذنب ذات سمة شخصية تستحق قانون عقوبة الموت من جهة، ومعنى العاهة الموروثة ولادة من جهة أخرى"[1].

نلاحظ من خلال هذا أن مرتكب الخطيئة تسلط عليه أقصى العقوبات وهي الموت، كما نجد عقوبة أخرى وهي العاهة الموروثة ونقصد بها العاهة التي تولد مع الطفل لارتكاب أبويه خطيئة مسبقة وأفضل مثال عن ذلك هو "أوديب" الذي ولد بعاهة العرج بسبب خطيئة والده، فعند اليونانيين الذي يولد بعاهة ذلك الطفل ملعون، والآلهة تسدد فيه ثمن الخطيئة .

3-4- الخطأ التراجيدي:

بعد أن تطرقنا إلى مفهوم الخطيئة، سنحاول أن نرفع الستار حول مفهوم الخطأ التراجيدي، وهذا المصطلح الذي يعتقد أولا بكثرة في الجانب المسرحي.

فهو: "كلمة يونانية تعني الخطأ التاريخي، إذ يؤدي الخطأ في الحكم، أو الجهل إلى كارثة، فالبطل لا يرتكب خطأ بسبب شره أو فساده، لكن نتيجة لهذا الخطأ أو ذاك مما يكون قد ارتكبه". [2]

كما يعتبر "الخطأ التراجيدي شأنا غامضا فإن الشعور المأسوي بالذنب تقع بين المفهوم التراجيدي الديني للخطأ – الدنس والخطأ – كمرض روحي وهذيان مرسل من الآلهة والمفهوم الجديد الذي يكون فيه المذنب "harmartômadikôm"* أي أنه من دون أن يرغم على ذلك قد اختار طوعا ارتكاب الجرم".[3]

---

[1] بول ريكور ،**صراع التأويلات دراسةهيرمنيوطيقية**، ص 329.

[2] باتريس بافي،**معجم المسرح**–تر– ميشال ف خطار،بيت النهضة ،شارع البصرة، ط الأولى ،بيروت ،فبراير، 2015 ،ص 265 .

* كلمة يونانية وتعني المذنب.

[3] المرجع نفسه ، ص،نفسها.

حقيقة أن ما نلاحظه من خلال تعريفنا للخطأ التراجيدي أن الشخص ليس مجبرا على ارتكاب الخطأ، بل هو من يختار ذلك بل يعد مذنبا من الدرجة الأولى ويستحق العقاب.

والخطأ في أوسع مفاهيمه: "مغامرة متعددة الإمكانيات وفي أبعد حدوده يكون اكتشاف اللانهائي وتجربة المقدس، لكنه مقدس سلبي، شيطاني، إنه الخطيئة في أقوى معانيها"[1].

لقد أثار هذا المفهوم في التراجيديا الإفريقية، جدلا كبيرا فكان بذلك محل الدراسات قديما وحديثا ولذلك نلاحظ أن مصطلح "الخطأ التراجيدي" له عدة مترادفات إذ: "تتوفر اللغة اليونانية على عدد من الكلمات والمترادفات للتعبير عن مفهوم الخطأ تأتي في مقدمتها (Até) و (Hamartia)، وتعني الأولى ظاهرة ما وراء وفوق– طبيعة بينما تدل الثانية على الخطأ أو الزلل عندما يكون أصله ومصدره إنسانيين، ويظهر الخطأ ذو المصدر الإلهي كدنس ديني وكسقوط وخسران، أما الخطأ الإنساني فهي مرض عقلي يصيب المذنب فيصير فريسة للهذيان الجنون وفقدان المعنى"[2].

ومن خلال هاته الرؤيا لمفهوم الخطأ التراجيدي نلاحظ أنه قد أثار ضجة كبيرة في الساحة الإغريقية لذلك فهو: ينتج عن انتهاك للمحظور، ويؤدي إلى هلاك فاعله فيكون أقرب إلى الخطأ ذي المصدر الإلهي (Até)"[3]. نستنتج من خلال هذا أن هناك علاقة بين الخطأ الإنساني (Hamartia) وإلا تم الديني (Até).

---

[1] عبد الواحد بن ياسر ،**حياة التراجيديا في فلسفة الجنس التراجيدي و شعريته** ،دار الأمان ، الرباط ، المغرب ، ط الأولى ، 2011، ص 70.

[2] المرجع نفسه ، ص 75.

[3] المرجع نفسه ،ص 76.

الفصل الأول

تجليات الخطيئة واللعنة في الميثاق الأسطوري:

أولا: بنية الخطيئة

1- النذر

ثانيا: بنية اللعنة

1- القصاص

2- التحول

أ- لغة

ب- اصطلاحا

ثالثا: المصير النهائي

أولا: بنية الخطيئة

تمثل الخطيئة عنصراً هاماً من عناصر الميثاق الأسطوري، إذ تعد في الأساس تمردًا على الأوامر الإلهية، وكسرًا للنواميس، ومساسًا بالمقدس وتدنيسه.

لقد كانت أول خطيئة على وجه الأرض هي خطيئة أبوين الأولين "آدم وحواء" «إذ راح إبليس يتوسل إليهما بشتى الحيل حتى يقنعهما آخر الأمر بالأكل من الشجرة المحرّمة ... وتذوقا معا الثمرة المهلكة، ونطقت السماء بحكمها، طرد الإنسان وكانت الخطيئة» [1]

كانت حواء سبب خروج آدم معها من الجنة، إذ كان في الأساس هناك شرط وهو عدم الاقتراب من الشجرة والأكل من الثمرة المحرمة، ولكن كسر الناموس واختراق المحظور وتجاوز الشرط يؤدي بالضرورة إلى العقاب.

أولا نرى أن خطيئة آدم وحواء لم تكن إلا رمزً ا للحرية، حرية المخلوق في مواجهة الخالق؟

فالخطيئة إذن هي انتهاك للقواعد الأخلاقية على وجه عام، وتطاول على القوانين الموضوعية على وجه خاص.

فيرى فيصل عباس: «أن الخطيئة هي بمثابة انفصال من الوجود الحقيقي ، فإن الإنسان الآثم حينما يقدم على خطيئة، إنما يتعرف على وجوده المنفصل الذي كان ثمرة لفعلته وكلما زادت حدة الشعور بالألم الناتج عن هذا الانفصال، زادت حدة الشعور بالحاجة إلى معاودة الاتصال بالحياة الكلية التي كان قد انفصل عندها بارتكابه للخطيئة»[2].

---

[1] مديحة عتيق، **أسطورة العالم الأخر في الشعر الحديث والمعاصر** ، دراسة موضوعاتية، دار تميم للنشر الجزائر، ط الأولى، 2010، ص 39.

[2] فيصل عباس، **الاغتراب والإنسان المعاصر وشقاء الوعي** ، دار المنهل اللبناني، بيروت، لبنان، ط الأولى، 2008، ص 75.

نلاحظ أن الإنسان الآثم يسعى إلى البحث ويعمل جاهدا كي يجد وجوده المنشطر والذي كان نتيجة لعمله الآثم ولاحظنا أنه كلما كان ألمه كبيرا، كان أمل العثور على وجوده أكبر.

«ليست التوبة سوى اعتراف الإنسان بالإساءة التي ألحقها بنفسه فهو يأخذ على عاتقه ذلك الألم الذي سببه للآخرين، وبذلك يخرج من حالة العزلة التي انحدر إليها بفعل الخطيئة»[1].

نرى أن التوبة ما هي إلا ذلك الندم أو بالأحرى اعتراف الإنسان الآثم بالإثم الذي قام به في حق نفسه، كما يحمل وزر الألم الذي لحق بالآخرين.

لذلك يرى هيجل: «إن غفران الخطايا لا يعني محو الألم المترتب على ارتكاب المعصية، بل هو يعني تقبل الألم وتحقيق من التصالح مع المصير»[2].

سنحاول من خلال هذا الفصل أن نتبين بنية الخطيئة وعلى ما تقوم في الأساس.

إذ يعتبر كسر القانون وتجاوز المحظور، تطاولاً جريء على الأنظمة الإلهية كما سبق وقلنا: «فالخطيئة هنا تتجاوز المعنى الجنسي المباشر لعلاقة الذكر بالأنثى، إنها أقرب إلى المعنى الصوفي، حيث الخطيئة هي ارتهان قلب الإنسان لعلائق الدنيا كافة»[3].

ولكن الأقدار تلقي بظلالها على كل المصائر، فرواية "نزيف الحجر" للروائي الليبي "إبراهيم الكوني" تتخذ من التاريخ ومن الصراع الدموي بين الأخوين "قابيل وهابيل" سيناريو درامي جديدا، يلعب الأخوان فيه الدور الرئيسي.

إذ يقول إبراهيم الكوني: «الرواية تتخذ من التاريخ ذريعة بهدف الوصول إلى أمثولة درامية تقول إن ما حدث ليس هو ما يجب أن يحدث، ما يحدث وهم لأنه يكشف لهذه

---

[1] عقيلة الطيب: **المقدس والمدنس**، تخصص ماستر أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 79.

[2] المرجع نفسه، ص 80.

[3] إبراهيم الكوني: **رواية التّيه**، دار التنوير للطباعة والنشر،ط الثالثة،بيروت،لبنان،1993، ص 66.

العلة ونستطيع أن نقول إن لا بقاء تحت كوكب القمر إلا للميراث الذي تغذى بأنفاس الروح وارتوى من نبع الخرافات واغتسل بمياه الزهد والعزلة واليأس»[1].

يريد إبراهيم الكوني أن يوصلنا إلى نقطة مغزاها أن المورث التاريخي جزء لا يتجزأ منا فالرواية ترتوي من ينابيع التاريخ، وتتخذ منه المطية للوصول إلى غايتها وتمنح من رحيق التجربة الإنسانية.

فالروائي قد استدعى من أبجدية التاريخ الديني شخصية قابيل بكل مواصفتها السابقة وكل ما تحمله هذه الشخصية من خطايا، لقد أبقى الكوني على الشخصية كما هي موجودة في التاريخ "قابيل ابن آدم" وما هذا إلا دليل على ارتباط هاته الشخصية بأول جريمة على وجه الأرض.

يقول الكوني في أولى عتبات الرواية "الاستهلال":«وحدث إذ كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم هل أنا حارس لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها، تائها وهاربا تكون في الأرض»[2].

نلاحظ أن افتتاح الروائي لنص "نزيف الحجر" بهذه الآية من الإنجيل يدل على أننا سنواجه نصا يقوم أساسا على محور الخطيئة بكل دلالاتها المحتملة التي ستكون موضوع بحثنا.

تدور أحداث هاته الرواية، حول راع إسمه أسوف يتخذ من الجبال حصنا منيعا له من بني البشر، عاش أسوف منعزلا عن حياة الواحات وجلسات السمر مع الخلان في الليالي المقمرة، لقد ورث هذا عن أبيه الذي كان يرى في ابتعاده عن الناس خيرً ا فهو

---

[1] ميرال الطحاوي: **محرمات قبلية المقدس وتخيلاته في المجتمع الرعوي**، المركز الثقافي، بيروت، لبنان ،د.ط ص 130.

[2] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، دار المصرية اللبنانية، ط الأولى، 1992، ص 5.

يفضل م جاورة الجن على مجاورة البشر فيقول: «الإنسان الذي يفضل الخير لابد أن يهرب من الناس حتى لا يلحق الأذى»[1].

لم يدرك أسوف ما يرمي إليه حديث والده، فالشيء الوحيد الذي يدركه هو أن والده أورثه خجلا يكفي صبايا الكون كلهم، لقد ربى في نفسه هذا الشعور التي تستحي حتى العذارى منه، فالخجل والصحراء لا يتناسبان إطلاقا.

كان أسوف حارسا لتلك الجبال يتأمل الرسوم والنقوش على الجدران، لقد كان يأتيه السياح من كل أقطار العالم لكي يصلوا أمام التمثال العملاق حتى جاء ذلك اليوم الذي أتى فيه زائران إلى أسوف، أحدهما يدعى "قابيل" والثاني "مسعود"، لقد بدا قابيل من ملامح وجهه أنه جاء لشيء معين لقد كانت ملامحه تستدعي الوقوف برهة والتأمل فيها!

ولكن أسوف تفطن لذلك فهو يدرك جيدا تفاصيل ملامح الغرباء فسأله أسوف: «هل جئتما لمشاهدة الآثار؟ أستطيع أن أدلكما على أماكن لم أرها للنصارى، لم يرها أنس من قبل»[2].

ولكن قابيل رد عليه وقال: «... آثار؟ ما عسانا نفعل بالآثار؟ ألا تعرف بأننا في حد ذاتنا آثار؟ »[3] فبمجرد الإجابة بهاته الطريقة يتضح لنا أن قابيل قد أعلن قطيعته الكاملة لأسوف ليس هذا فقط بل انفصاله عن وجوده الإنساني، وانتمائه إلى عالم جامد لا روح فيه.

لم يقطع قابيل كل هاته المسافة لكي يرى الآثار بل جاء لغاية أخرى، لا يعرف أحد نشوتها إلا هو، حيث قال لأسوف: «الحق أننا جئنا للبحث عن آثار أخرى ... آثار الودان هل تستطيع أن تدلنا على آثار الودان؟»[4].

---

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، المصدر نفسه، ص 20.

[2] المصدر نفسه، ص31

[3] المصدر نفسه ، ص نفسها.

[4] المصدر نفسه، ص نفسها.

لكن أسوف تجاهل كلامه وحاول أن يخفي تلك النظرة الفاضحة بعدم معرفته لمكان الودان، فأهل الصحراء طيبون وقابيل يعرف ذلك. فكيف يكون الحال إذا مع شخص لا يعرف الكذب ولم يجاور أحدا من قبل؟

لقد أدرك قابيل نبل وطيبة أسوف فحاول العزف على أوتار تلك الطيبة، باستفزاز أسوف فأجابهم: «من قال الودان؟ الودان انقرض من زمان مثله مثل الغزلان أنا لا أعرف آثار الودان»[1].

لقد عمد أسوف إلى هاته الكذبة لكي يبعد الزائرين عن آثار الودان، فبين أسوف والودان علاقة لا تنكرها حتى الجنيات في محاجر الكهوف، هاته العلاقة التي تبدأ مع أبيه أو بالأحرى "الخطيئة" التي بدأت مع والده حينما نذر لروح الجبل الودان ولكنه حنث هذا الوعد.

1 -النذر:

يعد النذّر كينونةَ الميثاق الأسطوري الأبدي، فيقال: «النذر أوجب على نفسه ما ليس واجبا عليها، تبرعا من صدقة أو عبادة أو إحسانا أو ذبيحة للمعابد، ويقال كذلك نذر ولده، جعله أبوه قيما أي خادما للكنيسة أو المعبد من ذكر أو أنثى»[2].

فالنذر إذا هو عبارة عن هدية تستدعي التعهد بفعل شيء ما إن تحقق أمر ما بتقديم عطية أو ذبيحة أو قربان في حالة تحقق أمل معين كما سلف الذكر.

فالحديث عن النذر يستوجب علينا الوقوف برهة! والتأمل في أبعاده!

«إذ ينبغي أن يشعر الناذر بأنه يقدم نذره للمنذور له، إيمانا به، وليس طمعا بمنفعة عاجلة يرجى تحقيقها وينبغي بالمقابل للمنذر له أن يطمئن الناذر بأنه مقبول في عائلة أبنائه المرضى عنهم، أما إذا حقق المنذور له طلب الناذر، وحنث الناذر بالوعد فإن

[1] إبراهيم الكوني: **نزيف الحجر** ، ص19 .

[2] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة نذر، ص4340.

الأول لن يسكت عن هذه الفعلة بالتأكيد، وسيطارده كابوس المنذور له، ويقوم بإخراجه من نطاق العائلة التي قبله فيها واحتضنه مع باقي أبنائه المرضى عنهم»[1].

نلاحظ من خلال هذا أن هناك بالأساس شرط مبني ما بين الناذر والمنذور له لابد من احترامه وعدم الحنث به، إذ ينبغي على صاحب النذر أن يقدم نذره ووعده هذا للمنذور له لا رهبة و لا خوفامنه بل اعتقادا وإيمانا به، لأن المنذور له سيدخل الناذر ضمن عائلته ويصبح أبا روحيا له، ويضمه مع باقي أبنائه المرضى عنهم أما إذا لم يتم تحقيق هذا الطلب وحنث الناذر بنذره فإن الآخر سيطارده ولن يكن إطلاقا حتى يخرجه من الحيز العائلي الذي أدخله فيه.

[1] سعيد الغانمي: **ملحمة الحدود القصوى المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني** ، المركز الثقافي العربي،بيروت، لبنان، ط الأولى،2000، ص75.

ثانيا: بنية اللعنة

اللعنة هي نتيجة مباشرة للخطيئة الناجمة عن خرق المقدس والعهد أو الناموس والمساس بالمحظور، أو هي حتمية ناجمة لذلك التمرد على القوانين الوضعية واختراق عظمتها.

فكثير هي الأحيان التي يقع فيها أبطال روايتنا في لعنة تلحق بهم في كل مرة وتجتث منهم بالقصاص، فروايات إبراهيم الكوني جميعها تتضمن اللعنة الأبدية، لتكبل أبطالها بأغلال محكمة الإغلاق، فلا منفذ ولا مهرب منها.

كما سبق وقلنا أن الخطيئة هي انتهاك للقواعد الأخلاقية على وجه عام، وتطاول على القوانين الوضعية على وجه خاص، وهذه الأخيرة تجرّ وراءها لعنة، تكون بالمرصاد لكل من حنث بوعده وهذا ما سنحاول التطرق إليه في روايته نزيف الحجر.

لقد كانت هنالك صلة قوية بين الودان ووالد أسوف من قبل، صلة أخفاها الوالد عن ولده متجاهلا بها إلحاحه الطّفولي بعدم تعليمه صيد الودان، لم يخبره الحقيقة كاملة وفي أحدى الليالي المقمرة، أخبره بقصته مع الودان أخبره تلك الليلة بما أراد هو أن يخبره به.

في أحد المرات أدرك الوالد ودانا تائها في الجبال فطارده، حتى تعب الودان من تلك المطاردة النكراء فترجل الوالد من فوق المهّري وحاول أن يخنق الودان بالحبل ولكن الودان دافع عن نفسه بتوجه طعنات قوية، أبرحت الوالد أرضا، فحاول الودان أن يسحق الوالد: «لاحقني ليسحقني بسلاحه الشيطاني فتلقيت سكاكينه في آخر فرصة هرس الأحجار بوحشيته رفع رأسه نحوي فرأيت في تلك اللحظة الصغيرة الحقد والشقاء في عينيه ورأت العناء والشراسة وأشياء كثيرة لم أفهمها»[1].

اختطف الوالد في تلك اللحظة بندقيته ووجهها نحو الودان، أدرك الودان في تلك اللحظة أنه لا مفر له من قبضة عدو غادر اسمه الإنسان، فقرر أن ينسحب من المعركة بملء إرادته قفز إلى الأرض من فوق ربوة عالية لتتكسر بذلك رقبته، وتصرخ في محاجر

[1] إبراهيم الكوني **نزيف الحجر**،ص26

الكهوف جنيات قد أعيتها عينا الودان المسكين اللتان تنطقا ن بالشقاء والحزن: «تسلق الصخور في حركة خاطفة وقفز إلى الأرض فكسرت رقبته فسال الدم من خياشيمه، ومات من دون أن تخفي تلك النظرة الحزينة من عينيه المفتوحتين مزيج من الشقاء والحزن والعجز»[1].

لم يخبره جل الحقيقة كان دائم التأمل والصفاء وكان في جذبته تلك يردّد المواويل الصوفية والحزن يقتص منه اقتصاصا لم يعلمه أنه نذر نذرًا لروح الجبال –الودان– بأن لا يصطاده، أو أن يعلم نسله صيده.

هنا يكمن سر هاته اللعنة –اللعنة الأبدية– التي لحقت أسوف جراء ما فعله والده.

لقد أنقذ روح الجبال الوالد ذات مرة من الموت المؤكد حين أدركه الودان وهو معلق بين السماء والأرض. «كان يصطاد في سفوح جبال "آيتسيس" فزحلقت رجله ووجد نفسه معلقا بين السماء والأرض يمسك بصخرة ورجلاه تتدليان في الهاوية فقد الأمل في النجاة فانتشله نفس الحيوان الذي كان يقاتله وينوي قتله أنقذه من الهلاك»[2]

فمنذ ذلك اليوم قطع على نفسه وعدا بأن لا يصطاده أو أن يعلم أولاده صيده.

لكن الوالد جاع هو وزوجته في سنوات الجفاف والقحط فكانت الأم حاملا بأسوف، فما كان على الوالد إلا أن يحنث بالوعد ويصطاد الودان لكي يطعم زوجته الحامل بولده، فهي لم تستطيع أن تقاوم الجوع. فالجوع لا يقاومه حتى أكثر الفرسان بأسًا فكيف ستفعل امرأة ضعيفة هزيلة وفوق هذا كله فهي حامل في بطنها روح أخرى تتغذى معها.

لقد شعر الوالد بالحزن والأسى الشديدين ، لما فعل فهو لم يكن يظن في يوم من الأيام أنه سيحنث بالعهد الذي قطعه فبكي بكاء حارا هذا ما سمعته زوجته خلسة عندما

[1] إبراهيم الكوني **نزيف الحجر**، ص27

[2] المصدر نفسه، ص 45

كان نائما: «بكى قبل أن يفعل ذلك وسمعته بنفسي يبكي في الليل وفي الصباح ذهب وعاد بودان كبير، سلخناه وأكلناه بعد جوع طويل» [1].

لقد خان الوالد العهد وحنث بالوعد وتجاوز النذر وروح الجبال ستعاقبه على ذلك دون محالة، وستلعنه بلعنته تقتص منه. هو كان يدرك هذا جيدا ولكن ما باليد حيلة فصراخ زوجته الحامل دفعه إلى فعل هذا.

فلو كان الجوع سيقضي عليه وحده لما أقدم علي هذه المجازفة الخطيرة ولكنه كان مدركاً بل كان علي يقين بأنه لن يعلم نسله صيدّ الودان مهما حصل.

1- القصاص:

لقد كان لمخالفة النذر ثمنا باهظا دفع الوالد تكلفته وقطع تذكرة سفره إلى العالم الآخر لقد عاقبته روح الجبال في تلك الرحلة الشنيعة التي خرج فيها ولم يعد.

كانت تلك آخر مرة يخرج فيها والد أسوف، فهل كان مدركا أنه لن يعود؟ هل كان يعلم أن الودان يترصده وهل ستبقى روحه معلقة بين الحياة والموت من أجل الانتقام؟

أسئلة كثيرة تستدعي منا الغوص في معانيها وحل أول شفرة فيها، لم يكن يعلم الوالد بأنها آخر رحلة له ولكنه كان على علم، بل كان على يقين بأن الودان سيكون له بالمرصاد، وسينتقم منه لخيانته للوعد.

وأحداث الرواية تكشف الكثير لنا عن ملابسات ما حدث لقد خرج الوالد ذات مرة من أجل الصيد، بعد إن أقفرت الأرض وبانت عروقها وقحطت كقحط أرض كنعان. فلم يجد ما يأكلونه فخرج عازما على أمرٍ لا يعلمه سواه. بعد تأخر الوالد خرج أسوف من أجل البحث عنه لأن غيابه طال هذه المرة فهو، لا يغيب بدون سبب فهناك خطب ما إذا!! إن ذهب لصيد فهو سيكون هنا قبل يوم وهذا أقصى حد، وإن ذهب إلى المقايضة فلن تأخذ منه كل هذا الوقت. «تزود بالماء والتمر واقتض أثره» [2]

---

[1] إبراهيم الكوني **نزيف الحجر**، ص47.

[2] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 30.

ظل أسوف أيامنا وهو على هذه الحال، إلى أن ارتسى على حقيقة الأمر، وجد آثار صراع، صراعٍ شرسٍ مع ودان عرف أسوف أن الصراع كان مع ودان لا سواه لأنه لا يوجد في جبال أينسيس بل في الصحراء كلها من هو أقوى من روح الجبال هذا ما جعل أسوف يشعر بالوهن في ساقيه ففي تلك اللحظة تضاربت في أعماقه سماهر اليقين بأن والده قد مات إثر هذا الصراع العنيف فما من أحد ينجو من قرني الودان المسكون.

«تتبع آثار المعركة على طول الوادي، فوجد بقع دم لوثت الأحجار وسقطت قطرات متباعدة على الرمل في قلب الوادي لم يعرف ما إذا كان المجروح هو الودان أو الأب الآثار تظهر وتختفي»[1]

لقد كان أسوف يرى المعركة أمامه كما ولو أنه كان شاهد ا على ما حصل في سفح الوادي، بدت له بعض لقطات المعركة، شاهد والده وهو يصارع ويراوغ ويحاول أن يستميل الودان ويستدرجه بكل قوة إلى سفح الوادي الموحش «هل حاول العجوز أن يربط الحيوان المتوحش إلى جذع الطلحة العالية، ثم انتصر الودان وجرجره عبر الوادي بضع خطوات؟ ثم ...يا ربي... هل أمسك بقرنيه؟ هل فعل ما يحذره هو نفسه من فعله دائما كان يقول أن لا شيء يثير جنون الودان مثل الإمساك بقرنيه، مهما كنت قويا ومهما راودك الأمل في الانتصار»[2].

لقد عانى الوالد كثيرا إثر هذا الصراع لأن المكان كله شبيها بساحة معركة لم تخلف وراءها إلا جثثا تنهشها الجوارح وتعلق الغربان دماءها. أدرك أسوف أن الوقع قد اشتد على والده المسكين، فالودان المسكون قد زلزل المكان وقاده بكل خبث إلى أعلى تلك القمة النكراء.

دهش أسوف من شدة المنظر المروع، فالمكان كله مسحوق وكأنها أقدام عمالقة قد سحقت الأرجاء، أم أن طواحين كبيرة طحنت كل شيء وجاءت على الأخضر واليابس

[1] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[2] المصدر نفسه، ص 32.

هنا: «تحت هذه القمة أو فوقها أو على سفحها، آثار المشادة اختفت ركض عبر الوادي الضيق المخنوق بين الجبلين وهو يلهث ظلال القمة المش ؤومة تخترق المضيق الضيق انحرفت يسارا صاعدا لسفح الشرس»[1].

لقد لعى قلبه وشعر بالغثيان عندما غزت أنفه رائحة عفن كريهة فكلما اقترب من القمة الملعونة، زادت شدة رائحة العفن وكأنما قبيلة بأسرها مصروعة فوق القمة الم‌شؤومة هاته.

بدأ يتسلق القمة بسرعة أكبر والرائحة تشتد عفنا أكثر فأكثر يا إلهي !! لقد وجد والده المسكين مصروعاً هناك ممدود الساقين حاسر الرأس، أشعث الوجه مزرقَ الملامح، لقد تمكن منه الحيوان المجنون لقد كانت آخر رحلة صيد له. «وجد العجوز راقداً على ظهره وجهه يتجه نحو السماء ومقلتاه فارغتان، وملامحه زرقاء، يحوم عليها ذبابٌ أزرق كبير الحجم، لا أثر لنزيف ولا بقعة دم باستثناء خدش في يديه الممدودتين بموازاة جسده»[2].

لقد ثأر الودان لأخيه الودان، واقتص من قاتل أخيه بل بالأحرى الذي كان سببا في انتحار أخيه الودان، فدفع الوالد ثمن خيانته للنذر بعدم اصطياد الودان، أو محاولة قتله للمرة الثانية «لقد كسر الحيوان المسكون رقبته كما كسر هو يوما رقبة ذلك الودان الذي انتحر»[3] فكل شيء في الصحراء له ثمن، فلا يوجد شيء بدون مقابل فالوالد ذات مرة حنث بوعده، فلقي حتفه مباشرة لأن الخطيئة التي ارتكبها تجر ورا ءها لعنة أبدية تصيب حتى نسله من بعده، وتكون له بالمرصاد لكي يأخذ عقابه وتأخذ العدالة السماوية مجراها، ويكون بذلك القصاص عقوبة محتومة للشخص الذي جنى، وخالف القوانين وتعدى على المحظور، إن لم يكفر عن خطيئته.

---

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**،ص 33.

[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

[3] المصدر نفسه، ص نفسها.

وصاحبنا هنا يعمل إلى التكفير، بل حنث بالوعد بعدما كان الودان منقذا له من الموت الوشيك، أيكون قتل الودان أقل ما يستحقه لإنقاذه له؟ أم أن الضرورة الملحة هي التي فرضت على الوالد التضحية بالودان لإطعام عائلته؟ لا تهم الإجابة عن هاته الأسئلة ما دام هناك عرف في الصحراء اسمه "النذّر". لأنك إذا نذّرت لابد أن تفي بنذّرك مهما حصل، فلا وجود للمبررات والأعذار والحجج حينما تعجز عن الوفاء بالنذّر.

فالتكهنات لا تفيد إن كنت عازما عن الرحيل دون عودة، والمبررات لا يؤخذ بها في ناموس الصحراء، إن كنت فاعلا أمرا يخالف هذا الناموس، فلا تكهنات ولا مبررات تنطوي تحت ما يسمى باللعنة الأبدية.

سنرى من خلال رواية "نزيف الحجر" أن الروائي إبراهيم الكوني قد عمد إلى الربط بين أحداث هاته الرواية، وعمل على إيجاد حلقة تربط الأحداث فيما بينها، والأم هي التي ستكون همزة وصل لربط الأحداث بعضها ببعض. فضحت الأم السر الدفين الذي كان الوالد يخشى الحديث عنه عندما لاحظت ذلك الإ صرار الرهيب لولدها ورغبته الملحة في اصطياد الودان لقد كان في عينيه بريق مخيف يسلبه بجذبة صوفية إلى اصطياد روح الجبال،كان في صغره دائم الإلحاح على والده بأن يعلمه صيدّ الودان ولكن الوالد في كل مرة كان يؤجل تلك الرغبة بل كان يحاول أن يتعامى عن إ صرار الولد ومحاولته الكثيرة وتوسله الشديد.

وعندما كبر أسوف كان ذلك الحلم الدفين، في أعماقه لا يزال يراوده ولا يزال حيا في داخله، عاش أسوف التجربة ذاتها التي عاشها والده إلا أن أسوف قد صار مسكونا بروح الجبال، مسلوب الإرادة «قال أبوه وكذلك أمه إن روح الودان تجذب نظلل...»[1]

لكن أسوف واعٍ بشيء، لم يكن يدرك مدى تلك القوة الآسرة الساحرة التي توجد داخل هذه الحيوان الأسطوري الرهيب. «أية قوة خفية ساقته لأن يشكل حبل الليف في رأس الحيوان الجبار العاتي فيربط مصيره بمصيره إلى الأبد...»[1]

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 64.

لقد ربط أسوف قلبه بالودان ومصيره بمصيره، فالودان جذاب وروحه تأسر وكأنما قوة خارقة تجعل أسوف ينقاد إليه معصوب العينين.

لاحظ أسوف وهو يرعى بقطيعه معزاة شغوفاً لعوبًا، تحاول أن تتسلق إلى أعلى السدّرة من أجل الحصول على طلحة لالتهامها.

فلفت انتباهه في الجهة الأخرى، تيس ضخم باسق الرقبة واثق الخطى، يمشي بكل صلابة، كان يتحرش بالمعزاة: «انشغل تيس عظيم متوج بقرنين كبيرين، مقوسين بمغازلة معزاة حسناء، قضيته اللون وبجوارها وقف تيس آخر بشعر أشعث يرمق المغازلة بحقد كانت المعزاة تستجيب لمداعبات التيس العظيم ... نظرة التيس الآخر القلقة تستمر فيها قلق وتأهب ودهشة»[2]

أمعن أسوف النظر جيدا إلى هذا الموعد الغرامي، الذي جاء صدفة، وفي تلك اللحظة التي هو غائص في النظر، تبين له أن ذلك التيس العظيم ما هو إلا ودان عملاق: «أدرك أسوف بشرر الوحي أن التيس العظيم الجميل العاشق ليس تيس ماعز وإنما هو ودان حقيقي، رأى تلك الإشارة من عيني التيس الآخر... ودان عملاق رمادي اللون، تتلامع شعرات فضية في شعره الكثيف تتدلى من ذقنه لحية طويلة رأسه متوج بقرنين معقوفين هائلين»[3]

دار صراع شرس بين الودان والتيس الحاقد بسبب تلك المعزاة الحسناء «التيس يحفر الأرض بحافره فالودان العظيم يكاد يتناطح مع التيس الغيور...»[4]

اندهش أسوف من تلك المعركة الشرسة بين الودان والتيس فهو لم يشهد في حياته معركة كهاته المعركة لم يرى قط كيف يتصارع تيس مع ودان أسطوري عظيم: «وجد

---

[1] المصدر نفسه، ص نفسها.

[2] المصدر نفسه، ص 48.

[3] االمصدر نفسه، ص نفسها.

[4] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 51.

نفسه يتناول عصاه وحبله، ويتسلل إلى قلب الوادي ... قوة مهولة دفعته إليه نسى النذر، ونسى مصير الوالد»[1]

سقط أسوف تلك السقطة التي جعلت مصيره معلقا بين برزخين جعلت مصيره مرمي في قارعة الوجود، وكأننا نرى المشهد ذاته والمصير نفسه، الذي لقاه والده.

لقد سقط وكاد يهلك، لولا تلك المعجزة التي حصلت له: «فتح عينيه ولم يصدق شيء خشن لامس أصابع يديه المتحشفة في قبضتها نتوء الحياة، ضبط على نفسه وفتح أصابعه الميتة قبض على الشيء، الحبل الخشن، لم يصدق... سحبه الحبل فأطل برأسه فوق القمة، لم يتبين شيئا في القمة، جسم يتحرك أمامه ... يا ربي إنه الودان نفس الودان»[2]

لقد أنقذ حياته، ذلك الودان الذي قتله والده، نفس الودان الذي حاول أن يمسك به أوليس الابن خليفة أبيه؟ أو ليست اللعنة الأولى تجر وراءها الثانية؟ أم أن الودان هو من يجذب بنفحاته الصوفية؟ أم إن الأقدار هي من دفعت ببطلنا أن يمسك بذلك الصراط لغاية ما؟ أجل هكذا تتلاقح الأساطير، في رحم الصحراء لتنجب لنا ودانا أسطوريا يدعى "روح الجبال".

لقد بهت "أسوف" لهول ما أصابه، رأى عيني والده في عيني الودان رأى الحزن والطيبة، رأى الحنان والأمان والأبوة: «رأى أباه في عيني الودان ... رأى عيني الوالد الحزينتين الطيبتين اللتين لم تفهما لماذا يؤذي الإنسان أخاه الإنسان»[3]

تجدد العهد وتجدد النذر بين الودان والابن، هذا العهد الذي سينقذه من معسكر الطليان وأسرهم، فهذا ما سنتطرق إليه من خلال التحول الذي مس ببطل روايتنا "أسوف".

2- التحول:

---

[1] المصدر نفسه ص 65.

[2] المصدر نفسه، ص 72.

[3] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 65.

أ- لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور، قال الأزهري: والتحويل مصدر حقيقي من حولت والحول: اسم يقوم مقام المصدر قال الله تعالى: "**خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوَلاً**" أي تحويلا وقال الزجاجي: "لا يريدون عنها تحويلا".

يقال: حال من مكان حولا، كما قالوا في المصدر صغر صغرا، وقال: الشيء حولا وجودلا، وأحال وفي الحديث من أحال دخل يريد من أسلم لأنه تحول من الكفر عما كان بعيد إلى الإسلام.

والتحول: التنقل من موضع إلى موضع وتحول: تنقل من موضع إلى آخر. والحول حال الشيء إذا تحرك، وكذلك كل متحول عن حاله فكأن القائل إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله، يقول: "لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله"[1].

نستنتج من خلال هذا التعريف اللغوي للتحول بأنه التنقل من موضع إلى موضع آخر وهذا ما ستجده عند من عرفوا التحول اصطلاحا.

ب- اصطلاحا:

للتحول تعاريف متنوعة ومتعددة، فهناك تحولات في مجالات شتى مثل: التحول الاقتصادي، والتحول الاجتماعي، والتحول الكيميائي، أما التحول الذي يهمنا هو التحول العجائبي الغرائبي، ومن بين التعاريف التي تتماش ى مع طبيعة الموضوع نذكر: التحول العجائبي والذي يعني تحول الشخص من حالته الطبيعية إلى حالة عجائبية غرائبية مثل تحول آرخني إلى عنكبوت، أو تحول باخوس إلى أسد، ونركيسوس إلى نرجس[2].

[1] ابن منظور، **لسان العرب**،مادة حول، ص 7052.

[2] تدريس خليل، **أحلى الأساطير الإغريقية**، كتابنا للنشر، المنصورية، لبنان، د.ط، ص 30.

لقد عالج "أوقيدوس" في كتابه "ميتافوزس" أو "مسخ الكائنات" هذه التحولات اللامنطقية فقد دفع بأوفيدوس إلى عوالم غريبة ومدهشة، ومن بين ما ذكره هو تحول "زيوس" إلى ضباب، ليظفر "بإيوا" التي يجنها والدها خوفا عليها من جمالها وتحول "زيوس" كذلك إلى طائر البجع ليحظى بالاقتران من الملكة "ليديا"، وينجب منها التوأم الشهير "الديوسكوري" صبيين وفتاتين وإحداهما هي "هيلينا"[1].

نستنتج من خلال ما سبق، أن التحول قد ظفر بالتعريف العجائبي وكان أو فيديوس سفير هذا التحول من خلال كتابه "مسخ الكائنات" فقد كان أو فيديوس ابرز أسطوري وصاحب مخيلة فائقة.

وهذا التحول هو ما سنراه في ثنايا هاته الرواية، لقد تحول أسوف إلى ودان –أجل إلى ودان– ودان ضخم يافع، جبار لم يشهد له مثيل، ذلك العهد هو من أنقذه من الأسر وأنجاه من سماهر الموت، وأفلت من يد الطليان.

لقد عمد الروائي إلى أسطورة شخصية "أسوف" وذلك من خلال حادثة التحول أسوف" إلى "ودان": «روى لهم الشباب وقالوا لهم أنهم رأوا المعجزة الأولى مرة في حياتهم، شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر، ويتحول إلى ودان يعدو نحو الجبل، يتقافز فوق الخصور في حركة الريح، غير عابئ بمطر الرصاص الذي ينه ال عليه من كل جانب، فهل رأيتم إنسانا يتحول إلى ودان، هل رأيتم إنسانا ينجو من رصاص الطليان وهو يجري وعلى قدمين حتى يختفي في ظلمات الجبال»[2].

هكذا نج ى "أسوف"، هذا الإنسان المجذوب بروح الجبال أو بالأحرى المسكون بنفحاته الصوفية، من أنياب الردى ليشق مصيره، إلى نهاية كان الأحب إلى قلبه أن يبقى أسيرا لو علم بها.

---

[1] www.aljaml.com.22:30 20/02/2016

[2] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص67

كما نلاحظ من خلال الرواية تحول آخر على غرار تحول أسوف إلى ودانّ ولكن هذا التحول ليس حقيقيا، بل هو تحول رمزي لأنه تماه ى عدة مرات مع هذا الحيوان لنجد هناك تحول رمزي آخر في صورة تحول العناصر الطبيعية إلى عناصر تكنولوجية.

لذلك يقول:«لابد إن نفرق بين نوعين من حيوانات السرد الخرافي:النوع الأول هو الحيوانات السردية التي تبشر بمخترعات المستقبل، و تستبق وجودها سرديا، مثل بساط الريح والحصان الطائر.....مثل هذه المخترعات أو الحيوانات السردية هي محاولات خيالية يباشرها السرد لاستباق العلم»[1].

ومن بين هاته الحيوانات التكنولوجية نذكر: "الجندب الطائر" فلو تأملنا هذا الحيوان التكنولوجي للوهلة الأولى !أكنا سندرك ما هو؟ قد تكون الإجابة بنعم أو لا.

لنلاحظ ارتقاء الفكر وتدخل الخيال ليقوم بعملية تحويل الحديد إلى حيوان مثل الجندب الطائر.

لقد تحدثنا كثيرا عن هذا الحيوان التكنولوجي دون أن نعرف عنه، فالجندب الطائر هو الهيلكوبتر، فيقول:«حلق الجندب الخرافي في الفضاء الصافي، وعبر سهول الحمادة الخلية الصامتة»[2].

صحيح أن السيارة لندوفر قد كانت أول حيوان تكنولوجي، بيد أن الطائرة أو الهيلكوبتر قد شكلت للإنسان الصحراوي صدمة كبيرة، فالحيوان التكنولوجي الآخر "السيارة" لا يختلف عن الجمال إلا في اللحم والدم هنا تتحول السيارة إلى حيوان آخر لا جنس له.

هنا نلاحظ شيئا آخر هو وجود ثنائية جديرة بالذكر، ألا وهي :

- حيوانات الطبيعية ذات ألفة و تتمتع بالمسالمة.
- حيوانات تكنولوجية ذات قسوة لا روح فيها ولا حياة.

---

[1] السعيد الغانمي، **ملحة الحدود القصوى**، ص 120.

[2] مرجع سابق، ص 80.

من خلال هذا نستنتج أن التحول لا يحتكر على أسوف والودان فقط، بل يتعدى ذلك ليصل إلى مصاف آخر قد ذكرناه سابقاً.

ثالثا: المصير النهائي

تتحدث رواية "نزيف الحجر" عن الصرا ع الأزلي بين قابيل وهابيل و أقصد هنا بهابيل "أسوف" فمعظم روايات إبراهيم الكوني تنتهي بنهاية مأساوية مفجعة لأبطال روايته.

فليس جديرا بنا أن نعرج عن هاته الحقيقة لأن النهاية، التي لحقت بأسوف كانت نهاية مؤلمة جدا، تستوجب الغوص في غمارها.

لقد رسم الكوني تفاصيل هاته النهاية، ربما موغلاً في الصراع الذي احتدم بينهما أو متحرزاً من اقتحام عالم، مكلل بالمكائد ما يزيد حدة الاصطدام بالخطيئة واللعنة.

ويتجلّى الاصطدام في رواية "نزيف الحجر" من خلال ما ينطوي في ثنايا هاته الرواية فالكوني عمدّ إلى دمج هذه النهاية ببدايتها وأقصد فكرة العزلة التي تركت في أسوف خجلاً يكفي صبايا الكون كلهم، نتيجة لبذرةٍ زرعها ووالده، في تربة طيعة هشة حُرثت من أجل وحش قادم يدعى "قابيل"، وحش بشري يفطم من دم غزالة، ليصبح إنسانا شريرا وعدوا للطبيعة العذراء وللحيوان المسالم.

لم يصدق قابيل محاولات "أسوف" في إقناعه بعدم وجود الودان، في جبال "مساك اصطفت"، فأدرك أنها محاولات بلهاء مثله تماما فأهل الصحراء في نظر قابيل بُلداء لا يجيدون الكذب أو بالأحرى فن الكذب فقال له: «الجد جد، واللعب لعب لقد حرمتنا من لحم الودان طول يومين، في حياتي لم أصبر يومين على اللحم»[1].

لقد حاول "أسوف" أن يخفي تلك النظرات التي فضحته «لا يوجد الودان هنا ثم ... ثم إن صيده صعب»[2].

لكن الأمر لا يخفى على داهية مثل "قابيل" ، قابيل الذي أرعب غزلان الصحراء كلهم وهو الآن يطمح أو بالأحرى يطمع إلى اتساع تلك الدودة التي تقبع في أسنانه طالبة للحّم الودان الأسطوري، فيقول لأسوف: «صعب أم سهل هذا شأني أنت دلني عليه وسوف ترى» أ وليس غريب أمر قابيل هذا ! لا يشبع اللحم إطلاقا فهذا هو ما كان يلاحظه "أسوف" عليه من خلال إلحاحه المتواصل ، لم يكف عن هذا حتى بلغ غايته لما تلعثم أسوف في الحديث فقال: «الودان لا يعيش إلا في رؤوس الجبال في أوعر الجبال... ربما يوجد في الجبال لا أدري»[3].

---

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 37.

[2] المصدر نفسه،ص 38.

[3] إبراهيم الكوني ، **نزيف الحجر**، ص 38.

هنا أمسك قابيل أسوف من لسانه فالرجل يمسك من لسانه، لقد كان في نبرة حديثه هذا تصريح كافي لقابيل، ليقتل الشّك باليقين ويتأكد بأن الودان موجود هنا، في جبال "مساك اصطفت" فصاح إلى مسعود صاحبه قائلا: «أتسمع؟ الرجل اعترف بوجود الودان في الجبال»[1].

بانت على أسوف كل بوادر الإحباط والذهول من شّدة هذا الموقف فلعن نفسه ألف مرة لحيائه هذا لقد بات يكره كل نفس كريه لقابيل وكل نظرة من الغرباء، وكل عبارتهم المستفزة لقد حاصروه من كل صوب، ولم يعد بإمكانه أن يرفع عينيه من الأرض.

ألح قابيل على أسوف أن يرافقهما ويدلهما على مكان الودان، وما تريث حتى تربع أسوف بينهما، ضامنا **عد**م فراره فأجلسه عنوة: «أجلسه قابيل بينهما فتولى مسعود قيادة السيارة كان يمسح العرق عن جبينه، ويلعن الصحراء بألفاظ رديئة سمعها أسوف لأول مرة أول مرة يسمع رجلا يتلفظ بالعبارات البشعة، ولم يفهم أي ذنب ارتكبته الصحراء حتى تستحق هذا السباب»[2].

انطلقت السيارة بقوة هائلة، كما لو أنها أشد شوقا منهما إلى الإمساك بالودان فكلما اندفعت السيارة كلما خفق قلب أسوف بقوة، حاول عدة مرات أن يلهيهما في الطريق فكان يحذرهما من الشقوق الموجودة والجيوب التي تقبع في الأرض فقال له قابيل: «ألم أقل أنك جني؟ من يمكنه أن يرى هذه الفخاخ غير الجن؟ لولاك لكنا نرقد في قاع أحد الأودية من زمان»[3].

كان أسوف طوال الرحلة يصلي، ويدعو أن لا يصادف وداناً، ولكن قابيل أمر بإيقاف السيارة، نزجل منها وقال: «أليس هذه آثار ودان؟ نزل أسوف خلفه وأجاب لا أظن هذه آثار ماعز»[4].

---

[1] المصدر نفسه ، ص نفسها.

[2] المصدر نفسه، ص 75.

[3] إبراهيم الكوني،**نزيف الحجر**،ص 80.

[4] المصدر نفسه، ص 81.

ارتبك أسوف من ثقل الموقف عليه، فهو يدرك تماما أن هاته الآثار ليست آثار ماعز بل هي آثار ودان، ولكن قابيل رمقه بنظرة خبث يكتنفها الشك وصار يردد: «آثار ماعز؟ هل هذه آثار ماعز؟»[1].

وفجأة حدث ما كان يخشى منه أسوف ظهر الودان أخيرا في الأفق ظهر بقرنيه البارزتين، وعينيه الآسرتين، كان ودانا ضخما «أطل الودان برأسه ووقف يتفرج على حركتهم في الوادي ... أشاح بوجهه سرعة حمد الله أن قابيل ومسعود لم يلحظا الحيوان ... كبر للصلاة صلاة العصر أحس بأن الودان لا يزال خلف ظهره»[2].

لقد أحس الودان بقدوم أسوف فخرج لاستقباله، فعندما كان أسوف يرعى بقطيعه فتسلل بعض منهم في وسط القطيع «الودان عرفه الآن ويريد أن يأتي ويحيه ... الويل لك ابتعد اقفز في جوف الجبل، يا روح الجبل ارجع إلى مأواك السري المنبع، قل لحظك أن يبتلعك حتى تعبر البلوى»[3].

في تلك اللحظة اختفى الودان بلمح البصر في مخبئه الحصين كما لو أنه سمع منجاة أسوف وتوسلاته له. وما إن اختفى الودان عن الأنظار حتى التفت قابيل وهو غاضب يبسط في يديه فضلات الودان ويقول: «هل هذه أيضا فضلات ماعز؟»[4].

عادوا من تلك الرحلة خائبين، ولكن أسوف كان سعيدا أنهما لم ينتبها إلى الودان على عكس قابيل الذي كانت عفاريت الدنيا كلها تنط من وجهه، فعلق أسوف على لهف ة قابيل وشراسته بعبارة قال فيها: «سمعت أبي يقول: أن ابن آدم لن يشبع إلا بالتراب»[5].

فبمجرد أن نطق أسوف بهاته العبارة، حتى ثار قابيل وهاج نلاحظ إن في هذه العبارة يكمن سر بلاغي عجيب، فهناك بؤرية تنطوي على معنيين، معنى فهمه أسوف

---

[1] المصدر نفسه، ص نفسها.

[2] المصدر نفسه،ص نفسها.

[3] المصدر نفسه، ص 82.

[4] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**،ص93.

[5] المصدر نفسه ، ص94.

ومعنى خبيث آخر فهمه قابيل، إذ أن أسوف عندما قال: ابن آدم وهو يقصد هنا، أي إنسان فأبونا آدم عليه السلام، هو أب لكل إنسان على وجه هاته المعمورة.

فأسوف هنا يتحدث على وجه العموم لا على وجه الخصوص، إذ يرى أن الإنسان لا يشبع ولا يكن حتى يشبع من التراب أما المعنى الذي فهمه قابيل ابن آدم هو أن أبوه في الحقيقة اسمه آدم، فظن إن أسوف يقصده بعينه، ويحاول استفزازه.

أما بالنسبة إلينا نحن، إذ ما تأملنا في فحوي هاته العبارة «لا يشبع ابن آدم إلا بالتراب»[1] فإننا نتوصل إلى معنى آخر فهو يقصد قابيل وهابيل، وستنتصب أمام أعيننا تلك الجريمة البشعة التي اقترفها قابيل في حق أخيه هابيل.

ازداد غضب قابيل وسخطه وأمر مسعود بأن يحضر له حبلا فقال: «هات الحبل يا مسعود، يومان وأنت تضحك علينا كالصغار الآن جاء دورنا، كي نضحك عليك يا ولد الكلب»[2].

انصدم أسوف بما أمر قابيل مسعود به، فلم ي جد ما يقوله فكرر تلك العبارة: «لا يشبع ابن آدم إلا بالتراب» [3] زاد غضب قابيل وجنونه لما أعاد أسوف تلك العبارة لقد أفقدته صوابه فهجم عليه وكبله فوق صخرة "متخيندوتش" فأحكم ربط ه جيدا وقال له: «لن تفلت مني كما أفلت من جنود الكابتن بورديللو، فقد أخبرني الأهالي بالقصة، ولكن لا أصدق أنك تحولت إلى ودان ... إذا كنت ولياً حقا كما يقولون، ففك القيد واهرب إلى الجبل، كما يفعل الودان ها ها ها لو تحولت إلى ودان فسأكون أول من يأكلك ها ها»[4].

فكرّر أسوف العبارة مرة أخرى. وهناك فقد قابيل صوابه نرى أن قابيل قد تذكر تلك الرؤيا التي شاهدها في حلمه لقد شاهد نفسه يمتطي ظهر الودان العظيم فطار به عبر أمواج البحر والعطش والجوع يقتلانه، رأى نفسه ينهش رقبة الودان، ولكن الودان لم

---

[1] المصدر نفسه، ص نفسها.

[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

[3] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 128.

[4] المصدر نفسه ،ص نفسها.

يتوقف لحظة عن الطيران وكلما زاد قابيل في نهش رقبة الودان كلما تضاعفت سرعة الودان وعندما توقف الودان على القمة، وجد قابيل نفسه يمتطي ظهر رجل بائس لم يعرفه من قبل تخيل الجسم تقطر من رقبته الدماء، فرفع رأسه نحو الرجل فقال له الرجل "لا يشبع ابن آدم إلا بالتراب " ورمى به من القمة السماوية، فوجد نفسه يطير إلى الهاوية»[1].

صلب قابيل أسوف على الصخرة وأدرك من خلال الرؤيا التي رآها، أن الودان الذي رآه في الحلم ما هو إلا أسوف اللعين لقد جن جنون قابيل، وأنهكته تلك الدودة القابعة في أسنانه بطلبها المستمر للحم فلم يفطن لنفسه عندما حمل السكين واتجه نحو أسوف ذعر مسعود لما رأى ما سيفعله قابيل، فحاول أن يمنعه «ماذا تفعل يا ق ابيل؟ أنت أصبت بضربة شمس ينبغي بنا أن ننصرف»[2].

توسل مسعود لقابيل، حتى أنه ركع له: «بلع ريقه بصعوبة وه و يسقط على ركبتيه ويركع أما م صديقه، أنا أعرف أين يخبئ جماله، سنذهب إلى –مساك ملت– بضعة كيلومترات»[3].

لكن فات الأوان فلقد دخل قابيل في نوبة هستيريةٍ من الضحك الجنوني ولم يبال بما قاله مسعود له، فهو يدرك جيداً الآن أنه لم يعد بحاجة إلى لحم الجمال، فهو لديه جمله أو بالأحرى ودانه فيقول: «لم أعد في حاجة إلى جمالك لدى جملي ... أنظر ألا ترى الودان معلق هناك؟ أنه ودان، كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟ هاهاها... يا لي من أهبل؟»[4]

لقد فاته صيد الودان الفعلي ولن يفوت فرصة صيد الودان الرمزي أمسك قابيل بالسكين فدهش مسعود وذعر وتراجع لأنه أدرك أن صاحبه عازم على ذبح ضحيته لا

---

[1] المصدر نفسه، ص نفسها.

[2] المصدر نفسه، ص 131.

[3] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 132

[4] المصدر نفسه،ص نفسها.

محالة فلفحنى فوق رأس ضحيته وجرّ عليه وذبحه، كما تذبح الشاة بلا رحمة ولا شفقة لكن أسوف صمد إلى آخر رمق فيه، لم يصرخ على عكس مسعود الذي أصدع مسامع الصحراء من شدة صراخه، فردد أسوف عبارته ورأسه مفصول عن جسده: " لا يشبع ابن آدم إلا بالتراب".

«ألقى القاتل بالرأس فوق لوح من الحجر في واجهة الصخرة تحركت شفتا أسوف وتمتم الرأس المقطوع: لا يشبع ابن آدم إلا بالتراب سالت دماء أسوف الطاهرة طهارة الصرنم أي فوق اللوح الحجري المنتصب بشموخ المكتوب بلغة التيفي ناغ "وهي أبجدية الطوارق»[1]. ليقول علي لسان الراوي: «أنا الكاهن الأكبر متخندوش، أنبئ الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر. تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة، تتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان»[2].

أسودت السماء وغطت الشمس بسحاب كثيف داكن «قفز مسعود إلى السيارة وأدار المفتاح في اللحظة التي بدأت فيها قطر ات من المطر تهقع زجاج السيارة وتغسل الدم المصلوب»[3].

هل تطهرت الصحراء من الخطيئة؟ هل كفر أسوف عن خطيئته وخطيئة أبيه التي ورثها له؟ هل كان ودانا ووليا لله حقا؟ وهل جنون قابيل عقاب له لتعديه على المقدس والمساس به؟ كل هذه تساؤلات تنبعث منها أطياف ميتافيزيقية، تكشف عن شعاب الأسئلة الوجودية إذ تتسع في صرح هذا البناء الروائي التخيلي الأخاذ تتسارع الصحراء اللانهائية للتعبير عن الانفعال الإنساني وللتعبير عن أبطال روايتنا

[1] المصدر نفسه، ص133.

[2] المصدر نفسه،ص نفسها,

[3] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص134.

الفصل الثاني

الدلالات والأنساق الأسطورية باعتبارها مسارا في الدراسة:

أولا: التراث التاريخي

ثانيا: التراث الأسطوري

1- أسطرة الشخصية:

أ- شخصية أسوف:

ب- شخصية قابيل بن آدم

2- أسطرة الطبيعة

أ- تقديس الحيوان

ب- الجبل

ج- النجوم

د- التراب

هـ- الريح

و- الصدّى

3- أسطرة تكوين الصحراء

أ- الاعتقاد بوجود الجن

ب- الاعتقاد بوجود السحر

ج- الاعتقاد بمكر المرأة

أولا: التراث التاريخي

لقد تجلت رواية "نزيف الحجر" كلوحة فنية بتجاذبها السحرّي والتاريخي لترسم لنا بأنامل الحاضر حكاية يذهل لها الكون، لما تحمله في طياتها من نصوص ضمنية متعددة الأنواع.

عمّد "إبراهيم الكوني" إلى أن يمتُح من أنهار التاريخ شخصياته، وأحداث روايته ليوصل لنا فكرة أو بالأحرى، ليضعنا أمام واقع تاريخي لابّد أن نجاريه ونأخذه بمحمل الجدّ لذلك يقول: "الرواية تتخذ من التاريخ ذريعة بهدف الوصول إلى أمثولة درامية تقول أن ما يحدث ليس هو ما يجب أن يحدث، ما يحدث وهم، لأنه يكشف لهذه العلة نستطيع أن نقول أن لا بقاء تحت كوكب القمر إلا للميراث الذي تغذى بأنفاس الروح وارتوى من نبع الحياة، وتغسل بمياه الزهد والعزلة واليأس فحقق غلبة على أزمان لا تغلب، وكل خلود كان دائما حكر على ارث الروح وحده"[1].

ولهذا الأمر اتخذ إبراهيم الكوني من أبجدية التاريخ ذريعة له، ليصقل أبطال روايته ويعطيها مذاقا تاريخيا حافلا يشهد له بالصنيع.

أيكون صنيعا يخلف وراءه انطباعا إيجابيا؟ أم أنه يذكرنا بأكبر مأساة عرفها التاريخ؟ نعم إنه يذكرنا بأول جريمة حدثت على وجه الأرض، فالروائي وظف شخصية قابيل بن آدم ولم يصطنع لها أو يحاول أن يطمس التاريخ، ويغير في حقيقة ما اقترفه قابيل بقتله لأخيه فما نلاحظ أن هناك تطابقا بين الجريمتي ن، في رواية "نزيف الحجر" وفي "الكتاب المقدس"، إلا أن الروائي أضاف إلى هذه الشخصية شيئًا من خياله فطعمه بالعجائبية ولهذا لا نجد انفصال في توظيف هذه الشخصية في الرواية أو في التاريخ "فإنها لا تنفصل في بعدها الرمزي عن التاريخ الوارد إليهم حكاية ومآثر وذلك لما يحمله التاريخ نفسه من قصص معقولة يقبلها المنطق (logos)، وأخرى تتجاوز العقل والمنطق إلى تخدم التعجيب والتخيل وفضائتها الميتافيزيقية (muthos) التي تنفح في التاريخ

[1] صالح ولعة، **المتخيل الصحراوي في الرواية العربية**، منشورات مخبر الأدب العام والمقار ن، جامعة باجي مختار عنابة، 2015/2014، ص 173-174.

المروي سحرها فتداخله روح الخوارق وسحّر الأعاجيب، فيستأنس الواقعي بأسمائه وأعلامه وحوادثه"[1].

كما نلاحظ أن التناص التاريخي الديني بارز بقوة في هذه الرواية إذ تعتبر أكثر روايات إبراهيم الكوني تقاطعا مع الكتب السماوية.

وعلى الرغم من أن الكوني قد استعار الجريمة أولى بكل تفاصيلها وجعل منها المرجع الأول لبناء روايته، إلا أنه عمل على إدخال ما يساعده هو على الكتابة وما يخدمه في بناء هيكل روائي حصين حيث زاد الكوني على الجريمة الأولى التي ارتكبها قابيل في حق أسوف، جريمة أخرى لا تقل بشاعة عن الأولى، وهي جرائم قابيل في حق الصحراء وفي حق الطبيعة وما فعل بالغزلان، لقد أباد معظم القطعان في الصحراء ليرضي جشعه وطمعه وغروره، لقد أضاف الكوني الكثير والكثير في حقائق القصة الأولى لأنه يرى في نظره أن التاريخ لم يقل شيئاً "في هذا المنعطف، يتحرر الروائي من مسوح الرواية ليرتدي ثياب الكاهن الذي يعجن التاريخ ليصنع منه أسطورة، ليبدع من ثناياه خلاصة تسميها الأجيال بلغتها الأحداث أمثولة"[2].

لقد اتسعت دلالات الرواية على حقيقة جديرة بالذكر، تفضح الشر وفاعليه وتفضح الجريمة الشنعاء، عبر العصور والتاريخ لذلك يقول الكوني: "فكيف استطاع هذا الداهية هذا الكاهن الذي نسميه في لغتنا اليومية روائيا أن يكشف حقيقة التاريخ، ليسخر منه كما اعتاد أن يسخر من كل أكذوبة"[3].

لقد عمد إبراهيم الكوني إلى الرجوع إلى التاريخ وتوظيف هذه الشخصية قابيل من أجل أن يطعمه بحقائق أخرى تعادل جريمة القتل، وهي جريمة قتل الطبيعة.

ثانيا: التراث الأسطوري

[1] محمد الأمين بحري، **سمياء الأسطورة في الرواية الجزائرية المعاصرة**، محاضرات الملتقى الدولي السابع للسمياء و النص الأدبي،قسم الآداب و اللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة،29 -30-31، أكتوبر،2013،ص 487.

[2] صالح ولعة، **المتخيل الصحراوي في الرواية العربية**، ص 175.

[3] المرجع نفسه، ص 176.

كثيرة هي الأحيان التي نجد فيها أنفسنا تائهين في غمار هذا العالم الأسطوري الآسر نتأمل في زواياه الزبرجدية التي يشع منها بريق منمق، بهيولة كونية لرواية قد اتخذت من الأسطورة حبلها السرّي التي تتغذى منه وتنمي قواها بواسطتها.

ولاشك أن من يقرأ لإبراهيم الكوني قد يلفت انتباهه ذلك الحضور القوي للأسطورة، فلقد كانت الأسطورة في الرواية ترسي برحالها على كل مضرب فيها حيث يقول: "الأسطورة وحدها تستطيع أن تنهي الاشتباك الموجّع، تنهي تورط الروائي بالوجود، وتنتشله من أسفل الحضيض، حضيض الواقع وحضيض التعبير في هذا المكان في هذا الوطن التميم يتحرر الروائي من الأسر ويستعير لسان الأسطورة ليستقيم الأمر لأن لسان الروائي لا يقنع أحد إذ لم يتعلم كيف يتكلم لغة الأسطورة"[1].

من خلال هذا نستنتج أن الكوني يرى أنه من لم يتقن لغة الأسطورة فسيظل يتخبط في مواجع هذا الوجود ففي نظر الكوني الأسطورة تقوم لسان الروائي.

لقد آمن الكوني إيمانا قويا بالأسطورة: "وهذا الإيمان العميق بما توفره الأسطورة للمبدع من حصانة وقوة"[2].

نلاحظ أنها تعطيه قوة في التعبير والحجاج والإقناع، فقد عمد الكوني إلى إعادة بناء فهو يقول: "أن نية الروائي الأول هدم البدايا ت من أساسها، وبناء البديل خارج حدود المكان بمساعدة الأسطورة، أي خلق أسطورة بواسطة أسطورة"[3].

فمن خلال هذا نلاحظ أن تشكل الأسطورة في روايات إبراهيم الكوني يظهر جلياً للعيان فالرواية الكونية تدمج الواقع بالأسطورة وتعمد إلى إلهاب هاته الصلة لتترجم إبداع الروائي وبراعته في ذلك الدمج.

1- أسطرة الشخصية:

[1] صالح ولعة، **المتخيل الصحراوي في الرواية العربية**، ص 184.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها.

[3] المرجع نفسه، ص نفسها.

قد تكون لأسطورة الشخصية صلة معمقة بثقافة الروائي وعلمه الكبير، بعوالم خاصة يسبح فيها الكوني مع مادته التي تنتج من التراث، تراثٍ يجعل من شخصيات أبطاله شخصيات تأخذ أبعادا لا تقهر، فهو ذو ثقافة عربية وافريقية وعالمية.

انطلاقا من كونِ الأسطورة هي الرّحم الولود لشخصيات متشبعة الآفاق، تحمل صفة عجائبية وتحلق في سماء ما يسمى بالعالم التخيلي، فإن الكوني خلق من شخصية "أسوف" و"قابيل" بن آدم شخصيات، تخرق المألوف وتتعدى الواقع على الرغم من انتمائها إليه.

أ- شخصية أسوف:

من يتأمل اسم "أسوف" تأملا عميقا فسيدرك تماما أن هاته الشخصية هي شخصية مغلوب على أمرها، كما سبق وقلنا، وهذا لا يعد قطعا جازما، وإنما مجرد تخمين قد يقودنا إلى كشف بعض الحقائق، عن هذه الشخصية.

تبدو لنا شخصية "أسوف" شخصية عادية، نظرا إلى الفضاء الذي يعيش فيه –الصحراء– إذ تفرض عليها نظاما خاصا لكي تعيش في صحراء لا ترحم ولا تتخاذل في تسليط أقصى العقوبات على من يتعدى على ناموسها ويخترقه.

تتجلى أول ملامح أسطورية في شخصية "أسوف" من خلال ما رواه الأهالي عندما وقع أسوف في الأسر، لقد تناقلت الصحراء كلها كيف تحول أسوف إلى ودان فلا خبر يبقى دفينًا في الصحراء: "روى لهم الشباب، فقالوا لهم أنهم رأو ا المعجزة الأولى مرة في حياتهم شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر ويتحول إلى ودان، يعدو نحو الجبل، يتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابئٍ بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من كل جانب، فهل رأيتم إنسانا يتحول إلى ودان"[1].

لقد اعتبر أسوف ولياً من أولياء الله الصالحين فالأهالي ذهلوا مما بدر من أسوف "وفي الليل ذهبوا إلى الزاوية ونظموا حلقة ذكر جذبوا فيها، حتى الفجر إكرامًا للولي وفرحًا بحلول الذات الإلهية في المخلوق اليائس"[2].

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 19.

[2] المصدر نفسه ، ص 20.

لقد تحولت هذه المسحة الأسطورية، من خلال حادثة التحول إلى أهم البوادر الدالة على شخصية أسوف الأسطورية، فعمّد الروائي إلى إظهار قوى أسوف الجسدية من خلال مطاردته للودان، فيقول: "أية قوة سخية قادته لأن يشكل حبل الليف في رأسي الحيوان الجبار، العاتي، فيربط مصيره بمصيره إلى الأبد، هل هذا أيضا كان مكتوبا في اللوح منذ قديم الزمان، قبل لأن يتكون في جوف أمه ويوجد في الدنيا القاسية"[1].

لقد وُصّف أسوف كذلك بالجّن، من خلال مصارعته للودان الأسطوري فأسوف الذي يعيش على التمر والشعير عائفًا للحّم لديه قوىّ الجنّ العجيبة فيقول عنه الأهالي: "إن مساك صفت مسكونة بإنسٍ واحد وقبائل كاملة من الجنّ والودان"[2].

فأسوف في نظرهم "جّن": "فالجّن اسم جمع يشار به إلى مجموعة قوى بلا شخصية فاردة وهو مشق من الجذر العربية جن ويبدو مستقلا تماما عن كلمة Genius اللاتينية وعن الآرمية أيضا"[3].

كما سبق وقلنا أن قابيل جاء مهددا لأسوف بالقتل، إن لم يدله على مكان الودان الأسطوري، أيدل أسوف عن مكان أبيه الودان؟ أيعرض أخوانه إلى الخطر؟

لقد رفض أسوف أن يشي بمكان الودان حاميا طوطمه وأباه الرمزي فلم يعبأ لما يحصل له على يد هذا السفاح، ومن خلال هذا الموقف، تظهر لنا الصورة الحقيقية لبطلنا الأسطوري أسوف عندما تحلى بالشجاعة والقوة، وطرد أشباح الخجل والخوف فلم يحرك ساكنا لتهديدات قابيل بالقتل، واكتفى بعبارة واحدة "أبن آدم لا يشبع إلا بالتراب" لقد كررها عدة مرات، فكانت المرة الأخيرة هي التي استفزت قابيل، وأفقدته صوابه.

فعمل إلى صلبه وذبحه فوق قمة اللوح الحجري: "تقاطرت خيوط الدم على اللوح الحجري فوق اللوح المدفون الذي نصفه في التراب كتبت بـ التيفناغ الغامضة التي تسبه رموز لتعاويذ السحرة في كانوا عبارة أنا الكاهن متخندوش أنبئ الأجيال أن الخلاص سيأتي عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر، تولد المعجزة التي ستغسل

[1] إبراهيم الكوني،**نزيف الحجر**، ص، 52-53.

[2] المصدر نفسه، ص 42.

[3] يوسف سلحت، **بن المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 47.

اللعنة تتطهر الأرض .....لم يلحظ القاتل كيف استوت السماء وحجبت السحب شمس الصحراء"[1].

بعد هاته النظرة على شخصية أسوف سنحاول أن نتعرف على شخصية رئيسية أخرى في هاته الرواية وهي شخصية قابيل بن آدم.

ب- شخصية قابيل بن آدم:

تعد شخصية قابيل بن آدم شخصية ذات رمزية أسطورية لما تحمله من غرابة وحيرة في ظاهرها وباطنها.

قابيل بن آدم هذا الطفل الذي مات والده مطعونا بسكين، عندما كان في أحشاء أمه وأمه المسكينة التي ماتت جراء لسعة أفعى بعد ولادته بأسبوع، فتكفلت خالته بتربيته هي وزوجها اللذان مات عطشا غير أن قافلة عابرة أنقذت قابيل من الموت فسقوه من دم الغزالة لكي يبقى على قيد الحياة، فمن حسن حظه وتعاسة حظ ربّ القافلة، قد وجده في قارعة الطريق، فأنتشله من عرض الصحراء، لم يدرك صاحب القافلة أن قابيل طفل مشؤوم وأنه سيكون السبب في خراب رزقه وموته، فلو علم لما اصطحبه معه.

لقد اكتشف والد قابيل اللعنة التي تلحق به، عندما وجده يدخل رأسه في صحن اللحم النيئ، ويلتهمه بشراهة، والدم يتقاطر من فمه، وكأنه حيوان مفترس أو طائر كاسر.

نلاحظ أن طفولة قابيل، هي طفولة صعبة جدا، أثرت على مستقبله، ليس هذا فحسب فقد تمادى كثيرا في إيذاء الناس وإيذاء الطبيعة، لأن المعاناة في الصغر تخلق وراءها أنقاض طفلٍ شرسٍ حاد الطباع وهذا ما حصل مع قابيل.

نلاحظ أن السمات الأسطورية، متغلغلة في شخصية قابيل لأن الكوني يستمد صفات وطباع هذه الشخصية من معالم مثيولوجيا بحتة لقد عمل على إضفاء نزوع أسطوري ينطوي تحت ما يسمى اللعنة الأبدية التي تتعلق بقابيل أيضا ليكون الجنون جزاءه لحنثه بالوعد الذي قطعه على اخوانه بالدم "الغزلان" لقد تأخى معها وصار منها، أيخون الوعد؟ أيحنث به؟

[1] إبراهيم الكوني ، **نزيف الحجر**،ص134.

أجل فعل فحبه وتعطشه للحم جعل منه سفاحا، لا يرحم ولا يميز بين أحد، "كان يفطر بشاة ويتغذى بشاة، ويتعشى بشاة وربما أكثر من شاة إذا استضاف أحد الضيوف أو عابري سبيل"[1].

نكشف من خلال ما سبق أن شخصية قابيل مرتبطة بحبه للحم وتعطشه للدماء فإن لم يأكل يوما اللحم ساء حاله واصفر لونه فماذا يحدث له لو قرر الإقلاع عن أكل اللحم؟

وهذا ما سنراه من خلال هذا المقطع: "مضى شهر على قراره فتبدلت ملامحه شحب وجهه وذبل جسمه وبرزت وجنتاه وعانى من الصداع والنوبات العصبية التي تشبه الصرع... يهرع إليه مسعود ويرشه بالماء ويحاول أن يجد له مخرجا لكنه لم ينجح وقد استيقظ في إحدى الليالي على صوت صديقه وهو يبكي"[2].

نستنتج من خلال ما سبق أن إبراهيم الكوني أراد أن يكسب قابيل، صفة الغرائبية والعجائبية أو بالأصح الأسطورية لكي ينتج عالم الكوني من ينابيع الأسطورة المتنوعة ويشبع نشوته من عوالمها الفنتازية.

2- أسطرة الطبيعة:

عمل الروائي إبراهيم الكوني على أسطرة مظاهر الطبيعة وإعطائها طابعا أسطوريا، إذ انطلق في موضوعه هذا، من تقديس بعض الحيوانات ومظاهر الطبيعة من نجوم ورياح وغيرها من مظاهر، تدفع بالروائي إلى التطلع إلى واقع يخصه ويخص قبائل الطوارق المنتشرة في ثنايا الصحراء، ومن المظاهر التي وظفها الكوني في روايته نذكر:

أ- تقديس الودان:

اعتنى الكوني في كثير من رواياته عناية فائقة بالحيوانات، فعمل على تقديسها وإعطائها طابعا قدسيا –الودان –الغزلان–الجمال– وجعل منها حيوانات أسطورية ورموز توحي لكثير من الأشياء لذلك: "الوعي البشري لم يزل يتعامل مع هذه المقدسات بلغة

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص80.

[2] المصدر نفسه، ص 81.

رمزية لا تصريحية" [1] وهذا ما نلاحظه من خلال تلك الرسومات الموجودة على جدران الكهوف.

لقد عمل الصحراويون مثل باقي الشعوب، على تقديس العديد من الحيوانات واتخذوها كآلهة لهم، فعملوا على تقديسها وعبادتها ووضعوا نواميس تنص "بعدم جواز قتل الحيوان الطوطم" [2] ومن بين الحيوانات المقدسة في الصحراء نجد "وعل الصحراء أو الودان، فالودان هو حيوان مقدس عند الصحراويين فهو وعل الجبل، يسكن المناطق الجبلية المعزولة ويمثل الإله عندهم"[3].

تظهر أول صورة للودان من خلال تلك الرسوم الموجودة على أحجار جلل متحندوش تلك الرسوم التي حفرت عميقا في مخيلة أسوف، فتعلق بها كثيرا فمن بين مميزات هذا الحيوان الأسطوري القوة والذكاء والسرعة والخفة وغيرها من الصفات الداخلية والخارجية لهذا الحيوان الأسطوري.

ب- الجبل:

يحظى الجبل بقداسة كبيرة لدى الشعوب البدوية، إذ يعد الجبل داخل إطار "الحرم المقدس فيصبح الاتصال بالآلهة ممكنا"[4].

فهذا بذلك يمكن للإنسان من الاقتراب والاتصال بالآلهة، فنجد أن كثيرا من المعابد تبنى وتقام فوق رأس الجبل، فالجبل في المعتقد للصحراوي شديد الالتصاق بالطبيعة الإلهية لذلك يقول الروائي: "لن يذوق طعم الحياة من لم يتنفس هواء الجبال، هنا فوق القمم العارية يقترب عن الآلهة يتحرر من البدن ويصبح بمقدوره أن يمد يده يقطف البدر أو يجنى النجوم"[5].

---

[1] محمد الصنع، **المتخييل السردي وأسئلة ما بعد الحداثة في السرد العربي المعاصر**، جامعة قناة السويس، مصر، نقلا عن حاتم بن التهامي الفطناسي، السرد وأسئلة الكينونة، دار الصداء للصحافة والنشر والتوزيع، إصدار 77، ط1، فبراير 2013، ص 218.

[2] سغموند فرويد، **الطوطم والحرام**، ترجمة جورج طربشي، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2008، ص 47.

[3] سعيد الغانمي، **ملحمة الحدود القصوى**، ص 47.

[4] مرسيا إلياد، **المقدس والمدنس**، ص 63.

[5] إبراهيم الكوني، **المجوس**، ج1، دار التنوير لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1992، ص 9.

نلاحظ من خلال الرواية، أن الودان يتخذ من الجبال الوعرة ملاذا ومسكنا له فهو يسكنها ويحتمي بقداستها من كل خطر.

فالجبل عند الكوني هو: "حرقة لأنه معبد الآلهة وقمة سماوية أين تتجلى الحقيقة حقيقة الأشياء والأشخاص، عكس السهل لذلك يقول أن الجبل يعده: "القمة السماوية أن تسخر من العظماء والمكابرين وتحولهم إلى دراويش بؤساء؟ ولكن وحيا قال له: إن القمة معصومة من الخطأ... وكان الجبل محراب الآلهة فإن السهل مملكة الأبالسة"[1].

كما سبق وقلنا، أن الجبل يعتبر التجسيد المقدس في نصوص إبراهيم الكوني.

ج- النجوم:

يكاد ذكر النجوم في رواية "نزيف الحجر" تعد فهي لم تذكر كثيرا ولكن التطرق إلى هذا المكون الأساسي من الفضاء الصحراوي لابد منه، إذ يعد هذا الكوكب المشع سبيل الصحراوين الوحيد في معرفة دروب الصحراء ليلا ليهديهم إلى الطريق الصواب.

إذ يقول الروائي: "القلب هو النار التي يهتدي بها البدوي في الصحراء، الدنيا كما يهتدي التائه في الخلاء ينجم "أيدي" كل النجوم تتحول وتنتقل وتتبدل مكانها، وتغيب أما هو فيبقى ثابتا حتى الصباح، أيدي مثل القلب لا يخدع"[2].

فالنجوم لطالما كانت السبيل الوحيد للخلاص من الضياع في باطن الصحراء الواسعة.

د- التراب:

ذكرت كلمة التراب في رواية نزيف الحجر ثمانية مرات على مدار الرواية من خلال عبارة كررها أسوف "لن يشبع ابن آدام إلا بالتراب"[3].

إذ تدل هاته العبارة عن نهاية الإنسان وفنائه وعودته إلى التراب من حيث خلق فالتراب هنا يرتبط بالموت والفناء.

لقد أثارت هاته العبارة جنون قابيل وأفقدته صوابه، مما جعل أسوف يدفع حياته ثمنا لهذا.

هـ- الريح:

---

[1] إبراهيم الكوني، **رواية المجوس**، ص 10.

[2] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 23.

[3] المصدر نفسه، ص 133.

في الخلاء تسكن الرياح بصفيرها الذي يدوي أرجاء الصحراء وثناياها، لتتحول الريح بذلك إلى علامة تتربص بكل خبر في الصحراء، فالريح هي الجواد الذي يشيع الأخبار فيها لذلك يقول الروائي: "وبرغم من عزلتهم في البر، الجنوبي إلا أن الريح استمدت تنقل إليهم أخبار الغرات في الشمال كما نقلت دائما الشائعات بين القبائل الصحراوية من زواج وطلاق وفضائح، ومواليد جدد ووفيات لا يخفى شيء في الصحراء مهما اعتزلت في الصحراء"[1].

نلاحظ من خلال هذا أن الريح تتحول إلى عنصر يوظف عن طريق إيماء أو علامة تتربص بالحياة.

و- الصدّى:

يعد الصدى مظهرا من مظاهر الطبيعة، كما يعد فضاءا من الفضاءات الصوتية التي تحفل بها الرواية، فالتقاط أذن السارد صدى هدير السيارة يرفع إلى ذلك المدّى الصحراوي العميق يقول الروائي: "اقترب هدير المحرك لا يعني اقتراب السيارة الأصوات في الصحراء تخدع وتوهم، في الصباح المبكر وعند حلول المساء يقرب السكون أبعد صيحة ويصنع منها صرخة وضجة"[2].

نلاحظ أن الأصوات في الصحراء تخدع وتوهم، وصداها يجعلك تتخيل أصواتا لا تسمعها، فالمدّى الصحراوي واسع والعزلة فيه تجعل كل شيء من حولك صدى فإن تأملنا قليلا لوجدنا أن صدّى هدير السيارة وافد وتخيل على مدّى الصحراوي، وعلى المكان ولكن تأثير هذا المدى أعطى له كل الحق في أن يخترق السكون الخانق في الصحراء.

كما نلاحظ كذلك صوتا آخر وهو صدى الآهات والآنات فيقول: "فردت عليه قمم الجبال الغارقة في الصمت والظلمات بصرخة أحسن منها.

آ...آ....آ...آ...آ

ثم التردد الصدى طويلا... طويلا.

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 134.

[2] المصدر نفسه، ص 13.

خيل إليه أنه يسعى عليه... أحسن بالدوار وعبرت رأسه غمامة. هز رأسه كي يطردها واستعان عليها بالصراخ آ...آ....آ...آ عادت الجبال ترد الصرخة بأقوى منها: آ...آ....آ"[1].

كما سبق وقلنا أن الرواية تزخر بأصوات عديدة يكتنفها صدّى قوي يزعزع بذلك محاجر الكهوف، ليكشف لنا عن سرّ آخر من أسرار الصحراء، ويغوص بنا في زواياها الواسعة.

3- أسطرة تكوين الصحراء:

تشتغل رواية "نزيف الحجر" على البعد المكاني، لكونه مهم جدا في الفضاء الصحراوي الواسع، إذ يرفض الكوني تلك النظرة التقليدية للصحراء، بوصفها ذلك الفراغ، أو ذلك الخلاء المخيف، فالصحراء هي واحدة من المحرضات لروح المغامرة الإنسانية، فإن لم تكن كذلك لما شق السياح طريقا لها من أجل التفرج على جمالها وجمال آثارها.

فعمل الروائي، على رسم الصحراء في عزلتها الكونية، وعذريتها وتمنعها، وكل ما تحمله من إصرار على إبقاء كبريائها وجبروتها.

فلقد كانت ومازالت، مهادا للحكايات العجيبة والأسطورية التي تعشش في ذاكرة أبطال روايتنا.

قام الكوني من خلال رواية "نزيف الحجر" على تحويل عناصر الطبيعة الصحراوية الصماء إلى عالم بديع ذي قيمة أنثروبولوجية، كما عمل على أسطورة تكوين الصحراء فيقول: "أنها غنية بتراثها الثقافي وبإنتاجها الرمزي [...] وأنها أوسع فضاء للتأمل والتفكير كما كانت أفضل موطنا للأساطير والأشعار الأديان" [2]. فالصحراء عند الكوني تمثل الحياة، تمثل إكسير الوجود، أو الفردوس المفقود.

يقول الراوي: "كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية، وكانت آلهة الماء تنزل إلى الأرض مع الأمطار لتفصل بين الرفيقين وتهدئ من جذوة العداوة بينهما، وما أن تغادر الآلهة ساحة المعركة وتتوقف الأمطار عن الهطول

---

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 66-67.

[2] حسن المودن،**الرواية والتحليل النّصي قراءة من منظور التحليل النفسي**، دار الأمان، الرباط، المغرب،ط الأولى،2009، ص63.

حتى تشتعل الحرب بين العدوين الخالدين، وفي يوم غضبت الآلهة، في السماوات العليا و أوقفت الحرب بين العدوين المتحاربين، جمدت الجبال في مساك اصطفت وأوقفت تقدم الرمل، في حدود مساك ملت متحايل الرمل ودخل في روح الغزلان، وتحايلت الجبال من جهتها ودخلت في الودان، منذ ذلك اليوم أصبح الودان مكونا بروح الجبال"[1].

ترجع هذه الأسطورة في الأساس إلى قضية التكوين الموضحة في السرد، وعلى أثر هذا نسجت جملة من الصراعات أهمها صراع قابيل مع أسوف، وصراع الغزلان مع الإنسان.

فلذلك نلاحظ أن الكوني اتخذ من الصحراء مخيالاً وأساساً جوهرياً في نصوصه الإبداعية، فكانت تجلياً للمكان المقدس، وبذلك فهي: "مكان مقدس ينطوي على تجلي القداسة، وعلى انبثاق المقدس"[2].

فالصحراء كما سبق وقلنا هي ذلك الفضاء المكاني الواسع الذي تنبثق منه كل معاني الحياة بالنسبة للصحراوي.

كما تعد الصحراء لدىّ العديد من الأدباء والشعراء: "مهبط الوحي والكتب السماوية وملاذاً للنساك والرهبان والمتصوفة"[3].

من خلال هذا نلاحظ أن الصحراء، تحظى بقداسة كبيرة لدى العديد من الأدباء والشعراء وعلى رأسهم الروائي ابراهيم الكوني.

كما تعد الصحراء في نظر الكثيرين: "صراع أبدي مع الموت، مع الغناء، لا وقت لديها للتفكير، إلا بما سيحفظ لها استمرار حياتها، ويحضنها مع مواجهة الغناء لهذا هي متأثرة بها بشكل واضح، كما يبرز لنا تأثر الروائي بالبيئة الصحراوية من خلال توظيفه لكلمات مرتبطة بطبيعة المنطقة، بلغة هادئة كذلك الصحراء"[4].

---

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 57.

[2] ميرسيا إلياد، **المقدس والعادي**، ترجمة عادل العوا، دار التنوير لطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص 64.

[3] خليفة بولفعة، س**ماء الفضاء في رواية الصحراء عند إبراهيم الكوني**، الملتقى الدولي لسماء النص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، قسم الأدب واللغة، الجزائر، أكتوبر، 2013، ص 2.

[4] باية شياخ، **المدن الصحراوية في الرواية**، تفجيرات رقان نموذجا الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية، أدرار الجزائر، 2013، ص 6.

فالروائي يعمل على تغيير تكوين الصحراء من خلال منطلقات تكون في داخله، وتتولد من بيئته ومحيطه الذي عاش فيه.

أ- الاعتقاد بوجود الجن:

لطالما كان الاعتقاد بوجود الجن اعتقادا قويا خاصة لدىّ الإنسان الصحراوي لذلك نلاحظ أن الكوني، قد ذكر هاته المخلوقات غير المرئية في كثير من رواياته إذ تعد: "كائنات مستورة خفية... تتردد الأماكن المهجورة الخرائب والمقابر ... موطن الجن هو الأرض"[1]. فالجن لا يدرك بالعين المجردة، يخاف منه الناس ويتحرزون من الاقتراب منه.

"لقد ارتبط وجود الجن بفضاء الكهوف والأودية التي تعد لغزا محيرا" [2]. لذلك نلاحظ من خلال الرواية أن هناك اعتراف صريح بوجود الجن وأهل الخفاء لذلك يقول أسوف: "أنا أسمع محادثات الجن في الكهوف، كل يوم يقولون أشياء مدهشة، ويخطر ببالهم في بعض الأحيان أن يغنوا أنا أخاف الجن" [3]، لقد كان أسوف يرعى بجوارهم ويستأنس بها فهو لا يجاور، ولا يصاحب أحدا لقد أوصاه والده ذات مرة بعدم مجاورة الإنس لأن الجن في نظره لا يؤذي مثل البشر لذلك يقول: "لكن الجن ليسوا أشرارا كلهم إذ يوجد بينهم الأخيار... كما أن التنظيم الاجتماعي للجن، منسوخ عن تنظيم العرب، فهم أيضا موزعون بين قبائل وعشائر، على رأسهم هناك عدة ملوك يحكمونهم، ويبرمون اتفاقيات، ومعاهدات تحالف مع الإنس"[4].

ب- الاعتقاد بوجود السحر:

يعد السحر من المعتقدات التي يؤمن بها العديد من شعوب العالم القديم، إذ شكل لهم هوسا لا يوصف، فهو يتكئ على قوة خارقة تسير بأمور خفية لا يعلمها إلا من سلك هذا المسلك الرهيب.

---

[1] يوسف شلحت، **بن المقدس**، ص 47.

[2] عبد القادر بن سالم، **بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد** ، منشورات الاختلاف، الرباط، ط 1، 2013، ص 162.

[3] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 57.

[4] يوسف شلحت، **بن المقدس**، ص 49.

لذلك نلاحظ أنه: "غدا قبلة مقصودة من طرف البشر العالقين في متطلبات ومآزق علمهم المنطقي البائس" [1] فهم يلجئون إلى السحر لحل كل مسائلهم العالقة وللحصول على مبتغاهم بأية وسيلة كانت.

لقد كان ظهور السحر في هاته الرواية واضح، فالكوني يحاول أن يأخذنا إلى عوالم التخيل، من خلال التفاتته للسحر وتمائمه الهوسية، وأحجبة التمبكتو وكانو.

هناك عدة مشاهد تبين لنا استخدام السحر، والتمائم والأحجبة، وإعداد الطقوس من أجل أكل لحم الودان، لأنه لا يؤكل هذا اللحم ما لم يسلح صاحبها بتعليق التمائم والأحجبة فيقول: "هل كتب عليّ أن أكون الوحيد بينكما الذي يذوق لحم الودان بدون حصن؟ لا خوف عليك أنت الوحيد المفطوم على دم الغزال، أنت روح الخلاء، والودان روح الجبل، والروح محصنة... كرر قابيل التعويذة القديمة غائبا: "الزيت غريان التمر خزان، اللحم ودان..." [2].

فالسحر موجود في عالمنا والعاملين به كثير فلا تخلو رواية من روايات الكوني من ذكر السحر والتمائم والأحجبة.

ج- الاعتقاد بمكر المرأة:

نجد المرأة في أعمال الكوني لا يخلو لها ذكر، فلطالما كانت سبب المشكل هي المثيرة والخطيرة هي المصيدة هي السجان والجلاد والوهن، فكما يقال في الأساطير القديمة: "إن المرأة في تقلبها ولينها وخداعها ومكرها وحكمتها مثل الثعبان غريب الأطوار" [3] فالمرأة هي السّم والترياق في الوقت نفسه، فهي شبيهة بالتفاحة التي أغوت آدم وأوقعته في الخطيئة.

فنلاحظ في رواية "نزيف الحجر" أن العنصر الأنثوي يكاد يغيب فالمرأة الوحيدة التي كان لها دور في الرواية هي والدة أسوف على غرار النساء اللواتي مرّ عليهن الروائي مرور الكرام، ومن بين هؤلاء النساء والدة جون باركر كابتن بقاعدة هويلس التي نعتها

---

[1] محمد الأمين بحري، **السرد العجائبي عند إبراهيم الكوني** ،بحث في المتافيزيقية للعناصر الكون القصصي،جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الملتقى الوطني الأول الخطاب العجائبي في المتخيل السردي ، قسم اللغة العربية حسيبة بن بو علي، الشلف،الجزائر،2012/4/3 ، ص 2.

[2] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 123.

[3] خليل تادريس، **أحلى الأساطير الإغريقية**، ص 30.

الساحر الزنجي باللعوب، المستهترة إذ أراد أن يعرف اسم والدته ليكتب له حجاباً قبل أن يشرع في تناول لحم الودان فقال "ما اسم أمك؟ قال جون ألا يكفي اسم أبي؟ قال الساحر: هذا شأني بدون معرفة اسم أمك لن يستقيم لك شيء، قال جون: ولكن أي هو أبي، فقد صبر الزنجي فصرخ: أمك هي التي ولدتك ولكن أباك شكوك في أمره... قال جون: كلكم تشكون في نساء النصّارى وترون أنهن مستهترات لعوبات قال الساحر: نحن نشّك في كل نساء الأرض فالمرأة هي المرأة رفيقها الشيطان"[1].

لقد ارتبط ذكر المرأة في هذه الرواية وخاصة في هذا المقطع باللعوب فنسب جون مشكوك فيه لأن الزنجي لا يَأمن من نساء الكون كلهن ويعتبر أن الشيطان رفيقهن كما أنه لا يرى الأمور كما يراها الآخرون فيقول: "نحن معشر علماء الغيب لا نضمن أبوة لأحد، لأننا نرىّ الأشياء كما هي دون أوهام" [2]. فالمرأة تشاطر الأبالسة تمردهم وتقاسم الشياطين سيادتهم، فكما يقول الكوني الأنثى أكبر مصيدة للرجل.

من خلال هذا نلاحظ أن الهروب من إغواء المرأة أمر مستحيل لأنها وكما قال الروائي سابقا هي رفيقة للشياطين.

ثالثا: الموروث الأدبي

الواقع أن عملية توظيف التراث داخل الرواية سواء أكانت على الصعيد الأسطوري أو التاريخي أو الأدبي مسالة في غاية الأهمية ولاشك أن القارئ لروايات إبراهيم الكوني يلحظ ذلك الحضور القوي للتراث بمختلف أشكاله كما سبق وذكرنا.

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 122.

[2] المصدر نفسه، ص 21.

فعودت الكوني إلى المورث العربي في هذه الرواية، إن دّل على شيء فإنما يدل على حرصه الشديد في إدراج تراثنا العربي بمصادره المتنوعة،باعتباره مورداً خصباً دائم التدفق ومن بين ما وظف الكوني نذكر:

1- القصص على ألسنة الحيوان:

عمل الكوني في هاته الرواية على توظيف القصّ على ألسنة الحيوان فأبدع في ذلك كما فعل من قبل، إذ حاول أن يدّمج هذا القصّ في الرواية دون الإخلال بالخط الرئيسي لأحداثها، فما نلاحظه هو أن سعة الحكاية أخذت خمس صفحات من المساحة النصية للرواية. فالروائي عمل على أن تكون الحكاية بلسان الغزالة التي كانت تسرد لابنتها عن تلك الأمثولة وتقص عليها حكاية النذر والتضحية فيقول الراوي: "قبل أن تدخل في تفاصيل الحصن الحصين، رأت أن تلقنها الأمثولة، وتقص عليها حكاية عن الوطن" [1]. حكاية تضحيتها بنفسها ليعيش نسلها من بعدها، ولتنقذ الإنسان من الموت عطشاً، فمدت عنقها إليه ليذبحها ويشرب دمها، ولكن في هاته التضحية يكمن سرّ عظيم ألا وهو تحريم دم الغزلان، لأن هذه التضحية وهذا القربان الذي قدم سيفتح عهداً بين نسل الغزلان ونسل الإنسان في عدم سفك دم هذا الحيوان إطلاقاً، ومن تجاوز هذا العهد تلحقه اللعنة لذلك يقول:" لا يوجد في الدنيا كلها أقوى من رباط الدم وليس هناك جريمة أبشع من خيانة هذا الرباط" ويقول ذلك "واللعنة سوف تلاحق من سولت له نفسه، أن يخون رباط الدم" [2]. ما نلاحظه في هاته الحكاية وجود موعظة وحكمة من خلال التضحية في سبيل الحرية والعيش الكريم. فمجيء هذه القصة على لسان الحيوان ليس صدفة، بل عمد الروائي على دمجها في الإطار العام للرواية من أجل أخذ العبرة والموعظة كما سبق وقلنا.

رابعا: الموروث الصوفي

يتأسس النص الروائي لدىّ الكوني، على مجموعة من المكونات ذات طبيعة صوفية فالتجربة الصوفية قد كانت على مرّ العصور، تشكل هيولة للمتصوف المتدين. "إذ تعد ظاهرة إنسانية مارستها البشرية للتعبير عن تلك النفحات، والشطحات التي تحل على

[1] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 98.

[2] المصدر نفسه ، ص 102.

المتصوف إذ يشكل التصوف "تيار" الشطح والأحلام، ويعبر عن نزعة مثالية في الإنسان وموقف كلي من الكون والحياة"[1].

فالتصوف بهذا المفهوم قد استطاع أن يقدم نفسه للبشرية كبنية معرفية فضلاً عن كونه ذا نزعة روحانية: "إذ يشكل التصوف في إطار المعارف الإنسانية ولاسيما اللغوية اتجاهاً فنياً وفكرياً ومذهباً اعتقاديا يميزه عن غيره لدى كثير من الناس شرقاً وغرباً قديمًا وحديثًا"[2].

لقد عمل الروائي من خلال روايته على توظيف الموروث الصوفي ليبين لنا كيف يكون التمازج، بين النفحات الصوفية والخطاب الأسطوري.

فحاول أن يؤطر صوفيته بنزعة أسطورية، سنحاول أن نكشف خباياها من خلال التعرف على أهم العتبات الصوفية.

فكما يقول لك "بأن لدىّ الصوفية رغبة دفينة، رغبة محبطة أو مكبوتة أو ممنوعة في بناء كونّ فاضل أهل سكان فضلاء ينعمون بالقوة والأمن والحرية"[3].

1- الوجد:

يعد الوجد من الجذبات الصوفية التي ينغمس فيها الصوفي دون أن يشعر فقد كان ظهور هاته الحالة واضحا جليا، من خلال الرواية فيقول الروائي: "الصوفيون الحكماء في الواحات يهزون رؤوسه م من الوجد ويلقون بالبخور في النار" [4]، نلاحظ أن تلك الهزات لرؤوسهم والتأرجح شمالا يمينا يعبر عن الحالة الروحية التي يعيشها الصوفي.

إذ: "يغيب المحب عن الحسّ للمحسّوسات في حضرة المحبوب ... فمن لا فقد له لا وجد له"[5].

---

[1] عثمان خلاف، **الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر**، منشورات التنين، الجاحظية، الجزائر، 2000، ص 45.

[2] عبد الحكيم خليل سيد أحمد، **الدلالات اللغوية في الثقافة الصوفية**، مجلة التراث، الجيزة، مصر، العدد 19، 2012، ص 10.

[3] ميلودي شغموم، **المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي**، ص 296.

[4] إبراهيم الكوني، **نزيف الحجر**، ص 102.

[5] محمد كعوان، **التأويل وخطاب الرمز في الخطاب الشعر الصوفي العربي المعاصر**، ص 413.

يعني هذا أن الصوفي يغيب عن الحسّ في حضور المحبوب فيتفاعل مع تلك الأجواء الصوفية ليرسم لوحة فنية بأنامل الصوفية لينبعث بخور الطهارة منها.

2- الحلول:

يعتبر الحلول من المفاهيم التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالصوفية لذلك فإنه: "لا يتحقق الحلول الإلهي، إلا بواسطة الجذبة في جوّ الإنشاد والغناء" [1]. فنلاحظ من خلال الرواية حلول الودان في جسد أسوف، إذ حلت الروح الإلهية فيه ليتوحدا بذلك في ذات واحدة.

فقد جاء في تحديد مفهوم الحلول: "هو اتحاد الذات الإنسانية بالذات الإلهية خيالا فقط والحلول عند الصوفية هو الحلول للمعارف الربانية في قلب الصوفي الواصل" [2].

فنلاحظ أن الصوفي يعمل على أن يصل إلى مرحلة الحلول ليكون بذلك التلاحم مع الذات الإلهية أمر لابد منه.

والمخطط الذي بين أيدينا يوضح لنا كيف كانت عملية الحلول:

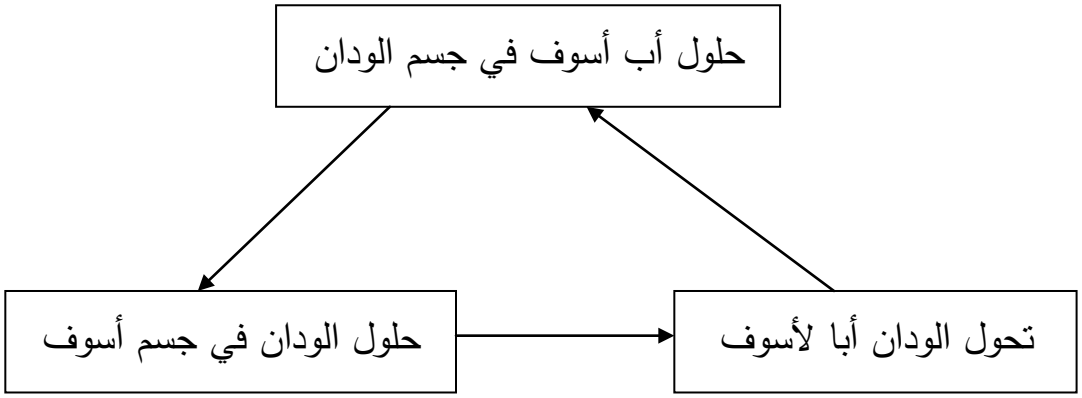

الشكل رقم (1): ظاهرة الحلول من خلال الرواية

نستنتج من خلال هذا المخطط أن عملية الحلول قد بدأت عندما حل والد أسوف في جسم الودان لينتج عنه حلول آخر ألا وهو حلول الودان في جسم أسوف لم الهروب من الأسر، كما يوجد حلول آخر آلا وهو تحول الودان إلى أب رمزي لأسوف إذ يعتبره طوطما له.

[1] عبد الواحد ابن ياسر، **حياة التراجيديا**، ص 28.

[2] محمد كعوان، **التأويل وخطاب الرمز في الخطاب الشعر الصوفي العربي المعاصر**، ص 439.

خامسا: التناص الأسطوري

1- بين الكتب المقدسة ونزيف الحجر:

تعد رواية "نزيف الحجر" من أكثر روايات الكوني تقاطعا مع المحكيات المقدسة إذ نلاحظ أن الرواية تستلهم تقاطيع مضمونها من قصة قابيل وهابيل، غير أنها تستدعيها بطريقة مختلفة ولغاية أخرى، وهذا ما سنتطرق إليه من خلال مقارنة ما جاء في الكتاب المقدس، وما جاء في رواية نزيف الحجر.

2- ما جاء في الكتاب المقدس:

"وحدث إذا كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم هل أنا حارس لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك، متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائهاً وهارباً تكون في الأرض"[1].

3- ملخص (حادثة القتل في الرواية):

هم قابيل لقتل أسوف بعد أن أباد كل الغزلان عن بكرة أبيهما وبما أن قابيل كان على دراية أن أسوف يعلم أين يسكن الودان عمل على استنطاقه بالقوة فأنكر الآخر لوجود الودان وعزم بعدم إخباره بمكان الحيوان الأسطوري.

فقلته: "وقف قابيل تحت قدمي أسوف المعلق في الجدار الصخري رأسه يتدلى على صدره وجهه ذابل، ابيضت شفتاه وتشققت بالعطش، جسده محشو في جوف الصخرة، قرنا الودان تلامس منكبه كأنها تبارك الطقوس الخفية".

من خلال عرضنا للمقطعين سنحاول إبراز أوجه التشابه والاختلاف بين النصيين:

أ- أوجه التشابه:

تكمن نقطة التشابه بين النصيين في الفعل الشنيع وهو "القتل" يعني قتل قابيل لأسوف ففي الكتاب المقدس عمل قابيل على قتل أخيه هابيل، كما نجد هناك وجه تشابه آخر وهو ذلك البعد العجائبي المثير من خلال:

- تكلم الرب مع قابيل - حلول الودان في جسد أسوف فطم قابيل من دم الغزلان، تغذي التمثال الكبير بدم أسوف لتهطل بذلك الأمطار الغزيرة.
- يوجد شبه آخر وهو قابيل فالمجرم في كلتا القصتين واحد.

ب- أوجه الاختلاف:

تتمثل أوجه الاختلاف في مستوى الشخصيات:

أولا: الكتاب المقدس: الرب - هابيل - الأرض.

ثانيا: نزيف الحجر: أسوف - مسعود - باركر - الودان - السماء.

4- على مستوى الأحداث:

[1] إبراهيم الكوني ، **نزيف الحجر** ، ص5.

في الكتاب المقدس: قتل قابيل لهابيل وسخط الرب عليه فقامت الأرض بلعنته.

نزيف الحجر: عمل قابيل على إبادة الغزلان في الجبال بمساعدة الضابط باركر لم يكتفي بهذا فقط بل أصر على معرفة مكان الودان لكن أسوف لم يخبره فعمل على قتله، لتلعنه السماء بهذا العمل الشنيع.

نلاحظ من خلال هذا أن رواية "نزيف الحجر" عملت على إنجاب نص جديد بفضل تفاعلها مع المحكيات المقدسة، ليس هذا فقط بل، على ذلك البعد الجوهري للقصة الدينية لكن أدخلت جانبا آخر، وبصورة مختلفة لواقعة القتل وسفك أول دم في التاريخ.

خاتمة

من خلال وقفتنا المستأنسة هاته للمغامرة الروائية والبحثية يجدر بنا أن نقول أنه من المغالطة أن نجزم بالوصول إلى نتائج قطعية في نهاية أي بحث، فالباحث الحقيقي هو الذي يفتح بعمله آفاقا جديدة، تعمل على ضمان استمرارية البحث، وما عملي هذا إلا حلقة في مسار تلك البحوث الأدبية ولن يكون الأخير في هذا المجال.

لذلك سنحاول التطرق إلى أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها باعتبارها محاولة للإجابة عن الإشكالية المطروحة في مقدمة البحث المعنون بـ: ثنائية "الخطيئة واللعنة" في رواية إبراهيم الكوني –دراسة نقدية أسطورية–

إذ تتمثل نتائج الفصل الأول في ما يلي:

- تعد الخطيئة من العناصر الأساسية للميثاق الأسطوري، إذ هي في الأساس انتهاك للقواعد الأخلاقية، وتطاول على القوانين الوضعية لذلك يعتبر كسر القانونين الإلهية هو تجاوز وتطاول.
- يعتبر النذر كذلك أحد القوام الميثاق الأسطوري، فهو التعهد بفعل شيء ما إن تحقق أمر ما إذ لابد أن يكون هناك بالأساس شرط مبني بين الناذر والمنذور له يجب احترامه وعدم الحنث به.
- اصطدام الرواية بحرائق اللعنة والجريمة وغياب التكفير، إذ تعد اللعنة نتيجة مباشرة للخطيئة لينتج عنها قصاص لابد من دفع ثمنه في نهاية المطاف.
- التطرق إلى المصير النهائي لأبطال الرواية.

أما النتائج الفصل الثاني فتتمثل في:

- رؤية المورث التاريخي كبنية استقرائية لواقع الرواية.
- الموروث الأسطوري ذا النزعة الأنثروبولوجية وما يحمله من طبائع وعادات وتقاليد وطقوس الشعوب الطوارقية.
- استلهام الرواية تفاصلها من الموروث الأدبي كعملية السرد عن طريق ألسنة الحيوان.
- تأسس النص الروائي على مكونات التجربة الصوفية ليعبر عن تقاسيم نصيه تفوح منها رائحة الزهد والوجد والحلول.

- تقاطع نص الرواية مع الكتب المقدسة، والمحكيات الدينية.

وفي الختام فإن لكل بداية نهاية، وخير العمل ما حسن آخره، فالرواية قد عبرت عن شخوصها، وأحداثها وزمانها ومكانها عبرت عن تلك التجربة الإنسانية بطابع مأساوي تراجيدي بلغة صوفية مكللة بالزهد موسومة بنزعة أسطورية.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم: برواية ورش عن نافع.

أ/ المصادر:

1. المدونة: الكوني إبراهيم: نزيف الحجر.

2. الكوني إبراهيم، **التبر**، دار التنوير لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

3. إبراهيم الكوني، **المجوس**، الجزء الأول، دار التنوير لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1992.

ب/ المراجع باللغة العربية:

4. تادريس خليل ، **أحلى الأساطير الإغريقية**، كتابنا للنشر، المنصورية، لبنان.

5. حسلاف عثمان، **الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر** ، منشورات دار اليقين الجزائر، دون طبعة، 2000.

6. بن سالم عبد القادر، **بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديدي**، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2013.

7. شغموم الميلودي، **المتخيل والقدسي في التصرف الإسلامي** ، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثانية، 2011.

8. شلحت يوسف، **بني المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده** ، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004.

9. الطحاوي ميرال ، **محرمات قبلية** ، المقدس وتخيلاته في المجتمع الرعوي، المركز الثقافي ، بيروت، لبنان ، بدون طبعة، 2008.

10. عباس فيصل، **الاغتراب و الإنسان المعاصر و شقاء الوعي** ، دار المنهل اللبناني، بيروت، لبنان، ط الأولى،2008.

11. عتيق مديحة، **أسطورة العالم الأخر في الشعر الحديث والمعاصر** ، دراسة موضوعاتية، دار تميم للنشر الجزائر، طبعة الأولى، 2010.

12. الغاغي سعيد، **ملحمة الحدود القصوى والمخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني**، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2000.

13. كعوان محمد، **التأويل وخطاب الرمز في الخطاب الشعر الصوفي العربي المعاصر**، عالم الكتاب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، 2015.

14. كنون أحمد زكي، **المقدس الديني في الشعر المعاصر من النكبة إلى النكسة** ، إفريقيا الشرق، المغرب، بدون طبعة، 2006.
15. الميلودي عثماني، **العوالم التخيلية في بوابات إبراهيم الكوني** ، المحاكاة للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2013.
16. بن ياسر الواحد، **حياة التراجيديا في فلسفة الجنس التراجيدي وشعريته** ، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2011.
17. ياسين بوعلي، **الثالوث المحرم** ، دراسات في الدين الجنس، الصراع الطبقي، دار الطليعة، بيروت، البنان، الطبعة الثانية، 1978.

ج/ المراجع المترجمة:

18. إلياد ميرسيا، **الأساطير والأحلام والأسرار**، ترجمة: حبيب كاسوحة، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، بدون طبعة، 2004.
19. إلياد ميرسيا، **المقدس والعادي** ، ترجمة عادل العواء، دار التنوير لطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، لبنان، بدون طبعة، 2009.
20. إلياد ميرسيا، **المقدس والمدنس**، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى، 1988.
21. ريكوربول، **صراع التأويلات دراسات هيرمينيوطيقية** ، ترجمة: منذر عياشي، دار أوبيا للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، الطبعة الأولى، 2005.
22. شتراوس كلودلفي، **الفكر البري** ، ترجمة: عطير جاهل، مجد المؤسسة الجامعية لدراسات النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2007.
23. فرويد سغموند، **الطوطم والحرام** ، ترجمة: جورج طريشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، طبعة الثانية، 2008.

د/ المعاجم:

24. إبراهيم مصطفى وآخرون، **معجم الوسيط** ، المكتبة الإسلامية استانبول، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
25. الإفريقي ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين مكرم، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، المجلد الخامس، بدون تاريخ.

26. بافي باتريس، **معجم المسرح**، ترجمة: ميشال ف. خطار، بيت النهضة، شارع البصرة، بيروت، الطبعة الأولى، 2015.

27. يعقوبي محمود، **معجم الفلسفة** ، أهم المصطلحات وأهم الأعلام، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008.

هـ/ الملتقيات والمجلات والرسائل:

28. بحري محمد الأمين، **السرد العجائبي عند إبراهيم الكوني بحث في العناصر الميتافريقية لعناصر الكون** ، الملتقى الأول للخطاب العجائبي في المتخيل السردي العربي، قسم اللغة العربية، جامعة حسيبة بن بوعلي، شلف، 2012/09/03.

29. بحري محمد الأمين، **سيماء الأسطورة في الرواية الجزائرية المعاصرة**، محاضرات الملتقى الدولي السابع، السيماء والنقدي الأدبي، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خضير بسكرة، 29-30-31 أكتوبر 2013.

30. سيد أحمد عبد الحكيم خليل، **الدلالات اللغوية في الثقافة الصوفية**، مجلة حوليات التراث أكاديمية، الجيزة، مصر، العدد 19، 2012.

31. شياخ باية، **المدن الصحراوية في الرواية تفجيرات أرقان نموذجا**، الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية، أدرار، الجزائر، 2013.

32. الطيب عقيلة، **المقدس والمدنس في رواية المجوس لإبراهيم الكوني** ، دراسة في الشكل والتأويل، مذكرة مقدمة، لنيل شهادة الماستر في الأدب واللغة العربية، تخصص أدب حديث ومعاصر، إشراف الدكتور بحري محمد الأمين، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014/2013.

33. الصنع محمد، **المتخيل السردي وأسئلة ما بعد الحداثة في السرد العربي المعاصر**، جامعة قناة السويس، مصر، نقلا عن حاتم بن التهامي الفطناسي، السرد وأسئلة الكينونة، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، 2013.

و/ موقع الكتروني:

WWW.aljaml.com.22:30 20/02/2016

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنـــوان	الصفحة
مقدمة----------	أ – ج
مدخل: إشكالية المقدس والمدنس تحت ضوء الخطيئة واللعنة	
1– المفهوم اللغوي----------	5
1–1–مفهوم المقدس----------	5
1–2–مفهوم المدنس----------	6
2– المفهوم الاصطلاحي----------	6
2–1– المقدس----------	6
2–1–1–المقدس والدين----------	7
2–1–2–المقدس والأنثوبولوجيا----------	7
2–1–3–المقدس والتصوف----------	9
2–3– المدنس----------	9
3–3– الخطيئة----------	10
3–4– الخطأ التراجيدي----------	11
الفصل الأول: تجليات الخطيئة واللعنة في الميثاق الأسطوري	
أولا: بنية الخطيئة----------	14
1– النذر----------	18
ثانيا: بنية اللعنة----------	20
1– القصاص----------	22
2– التحول----------	28
أ– لغة----------	28
ب– اصطلاحا----------	29
ثالثا: المصير النهائي----------	32

الفصل الثاني: الدلالات والأنساق الأسطورية باعتبارها مسارا في الدراسة

أولا: التراث التاريخي---------- 40
ثانيا:التراث الأسطوري---------- 42
1- أسطرة الشخصية---------- 43
أ- شخصية أسوف---------- 43
ب- شخصية قابيل بن آدم---------- 45
2- أسطرة الطبيعة---------- 46
أ- تقديس الودان---------- 46
ب- الجبل---------- 47
ج- النجوم---------- 48
د- التراب---------- 48
هـ - الريح---------- 49
و- الصدّى---------- 49
3- أسطرة تكوين الصحراء---------- 50
أ -الاعتقاد بوجود الجن---------- 52
ب - الاعتقاد بوجود السحر---------- 53
ج- الاعتقاد بمكر المرأة---------- 53
ثالثا: الموروث الأدبي---------- 55
1- القصص على ألسنة الحيوان---------- 55
رابعا: الموروث الصوفي---------- 56
1- الوجد---------- 56
2- الحلول---------- 57
خامسا: التناص الأسطوري---------- 59
1- بين الكتب المقدسة ونزيف الحجر---------- 59
2- ما جاء في الكتاب المقدس---------- 59
3- ملخص (حادثة القتل في الرواية) ---------- 59
أ- أوجه التشابه---------- 59

ب- أوجه الاختلاف---------- 60
4- على مستوى الأحداث---------- 60
الخاتمة---------- 62
قائمة المصادر والمراجع---------- 65
فهرس الموضوعات---------- 69

ملخص:

هكذا تتلاقح الأساطير الميثولوجية التراثية في رحم الصحراء لتفتح لنا خارطة الإدهاش ذراعيها وتنير لنا قناديل الوجود الروح الروائية لا تضاريس الجسد.
لذلك يعد الروائي الليبي إبراهيم الكوني نموذجا ساطعا في استقصاء تفاصيل عالم الصحراء فجاءنا برواية يسجد لقدستها الوجود ألا وهي رواية "نزيف الحجر" التي استحضرت أسطورة الصراع الأخوي الإنساني الأول بين قابيل وهابيل ليتحول هذا الصراع إلى انتهاك جدار الأخوة بين الحيوان والإنسان ليحترق أبطال روايتنا بلعنات جراء الخطايا التي ارتكبوها.

Résumé:

Ainsi se mêla l'héritage mythologique an profond du désert pour faxiner et claires l'existence de l'esprit romancier et non la topographie du corps et de la chaire.

Sur ce le romancier libyen IBRAHIM KONI est considère étant un modèle pour enquêter les secrets du désert il propose le roman « NAZIF AL HAJAR » Le saignement des pierres qui évoque le gendre du premier conflit. Fraternel dans l'histoire de l'humanité finit en violant la paroi qui sépare l'homme de l'animal et qui maudit ces héros romanesque à travers les péchés commis.